أدب الحروب

# من ذاكرة الاحتلال

محمد هلال الخالدي

الكويت - يناير 2019

# من ذاكرة الاحتلال

محمد هلال الخالدي

الكويت - يناير ٢٠١٩

إلى أمي وأبي ..

**آه ! لقد قضيت ليلة نكراء،**

**مليئة بالمشاهد المخيفة والأحلام المروعة،**

**حتى لقد وددت ألا أقضي ليلة مثلها،**

**ولو اشتريت بها دنيا من الأيام السعيدة،**

**ما كان أهولها من ليلة مفزعة !**

**وليام شكسبير**

**على لسان "كلارنس" في مسرحية ريتشارد الثالث**

الطقس حار جدا ولاهب في بغداد في أشهر الصيف، خاصة في شهر يوليو / تموز، وشهر أغسطس / آب، يسميه العراقيون "آب اللهّاب". كان الفتى قد أتم الثامنة عشرة من عمره قبل بضعة أشهر من عام 1990. اختلق ألف حكاية وعذر كي يقنع والده ليسمح له بالسفر مع أصدقائه، وكان قد اتفق مع صديق له على أن يسافرا إلى العراق، ورتبا معا كل شيء، بما فيها خطة السفر التي كانت تقتضي أن يقله صاحبه معه في سيارته ذاك الصباح، إلا أن صاحبه لم يحضر، فترجل صاحبنا - الذي كانت تسيطر عليه فكرة السفر حينها، ولا يزال - وأخذ حقيبته الصغيرة، وتوجه ماشيا إلى موقف الباصات الذي كان يبعد عن منزله مسافة قصيرة. عَبَرَ الشارع وركب الباص وتوجه إلى "العبدلي"* .

نزل الفتى في آخر محطة يصل إليها الباص، داخل مركز الحدود الكويتية مع العراق (مركز العبدلي)، فتوجه إلى شباك الجوازات، وأنهى إجراءات الخروج، ثم أكمل طريقه ماشيا نحو مركز الحدود العراقي، حيث المسافة بين المركزين لا تتجاوز 5 كلم تقريبا، لكن وسط الطريق، توقف له أحد العابرين، وأقله معه بسيارته إلى مركز "سفوان" العراقي.

لم تكن أجواء السفر جديدة على الفتى، خاصة السفر بالسيارة إلى العراق، فقد سافر قبل ذلك عدة مرات مع والده رحمه الله قبل الاحتلال العراقي للكويت عام 1990، وكان كعادته، هو من ينجز إجراءات الدخول والخروج عند كل منفذ حدودي، فاكتسب شيئا من خبرة الترحال وما تتطلبه مراكز الحدود.

* الحدود الكويتية مع العراق

في مركز سفوان الحدودي، أنهى الفتى إجراءات الدخول إلى العراق، وكانت آنذاك لا تخلو من "البهدلة" والكثير من الشتائم والسخرية من قبل موظفي الجوازات والجمارك العراقيين، ليس ضد الكويتيين فحسب، بل على الجميع، فهذه كانت على ما يبدو تسليتهم الوحيدة لتمضية وقت العمل، المليئ بالتذمر والفوضى والهمجية والازعاج. بكاء أطفال هنا، وصراخ رجال يتلاومون هناك، ونداء بائع الشاي المتجول يصم الآذان، وتحاشر العشرات على الشبابيك بلا انتظام.. وكلٌ يريد أن ينتهي أولا !

خرج الفتى ماشيا من بوابة الحدود، وأول ما رآه سيارات الأجرة الكثيرة على جانبي الطريق، يتسابق أصحابها على كل راجل يخرج. استأجر صاحبنا سيارة "تكسي" أقلته إلى مطار البصرة، وهناك بدأت صفحة جديدة من صفحات رحلته البائسة. كان مطار البصرة رائعا، مكانا حضاريا يختلف عن مراكز الحدود البرية، فيه مطاعم ومقاهي وطاولات نظيفة ومحلات رائعة، مضيفات جميلات يعبرن المكان وهن يضحكن ويوزعن الابتسامات، طوابير منتظمة على "كاونترات" خطوط الطيران ومكاتب ختم الجوازات.. سحره المكان، وعشق المطارات منذ ذلك اليوم، كان مطار البصرة أول مطار يدخله في حياته. ولا يزال صاحبنا يعشق المطارات، ولا يملّ منها مهما تكررت زياراته لها، يحب المطارات حبا في السفر.

اشترى الفتى تذكرة ذهاب وعودة من البصرة إلى بغداد. وتوجه إلى أحد المقاهي الهادئة وتناول افطاره، قطعة كيك وكوب قهوة وجلس يأكل ويتأمل المكان في انتظار موعد صعود الطائرة.

حان الموعد وركب الفتى الطائرة لأول مرة في حياته، جلس عند النافذة، وأمضى وقته مبهورا بحركة الحافلات وسيارات الخدمات الأرضية في المطار، مسحورا بحركة الجنيحات التي كان يفعلها قائد الطائرة ضمن إجراءات الفحص الروتيني قبل الاقلاع.. ولطالما سحره الطيران، حتى أن أول وظيفة تقدم إليها في حياته كانت طيار مدني في الخطوط الجوية الكويتية، التي كانت قد أعلنت عن بعثات دراسية جديدة، فتقدم لها ضمن جموع يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف ربما، ولم يحصل على البعثة بالتأكيد بسبب تواضع شهادته ودرجاته وعدم تمكنه من اللغة الانجليزية، أمام بقية المتقدمين من خريجي المدارس الانجليزية والاميركية، بينما هو خريج مدرسة حكومية !

أعلن كابتن الطائرة بدء الاقلاع، ويا للهول ويا للمتعة، تسارع الطائرة على المدرج يسحر الألباب، ثم ارتفعت الطائرة فإذا بها تهتز وتصدر أصواتا لم يألفها، وأخذت الطائرة تتجه يسارا وتنحني فإذا الفتى ينظر للأرض مبهورا مأخوذا بالحدث الجديد عليه، الناس والسيارات والمنازل تصغر وتصغر، والطائرة تمخر عباب السماء وتخترق الغيوم وتصعد .. يا له من شعور ممزوج بالخوف والفرحة والابتهاج.

استقرت الطائرة على مسارها نحو بغداد، وأعلن الكابتن إشارة السماح بفك أحزمة الأمان، ونهضت المضيفات في همة ونشاط سريع لتقديم الضيافة للركاب. ساد الهدوء والطمأنينة جموع المسافرين بعد تلك الاهتزازات العنيفة، والفتى متسمّر عند النافذة، يتأمل في ملكوت الله، وفي الجنيحات.

استغرقت الرحلة من البصرة إلى بغداد على ما يذكر الفتى حوالي ساعة أو نحوها، كانت هادئة ولم يعكر صفوها شيء يذكر في بداية الأمر. لكن مع اقتراب موعد الهبوط، كانت الاهتزازات تزداد في الطائرة، وكلما هبطت أكثر، كلما زادت الاهتزازات والاضطرابات، وكان قائد الطائرة قد حذر الركاب وطلب منهم الجلوس في مقاعدهم وربط أحزمة الأمان نظرا لوجود عاصفة رملية. وعاش الركاب كابوسا مرعبا مع تزايد اهتزازات الطائرة وتأرجحها في الجو وكأنها لعبة. تخشّب الفتى من شدة الخوف، فهذه أول مرة يركب فيها طائرة، فإذا بها تهتز وتنتفض وسط صرخات كثير من المسافرين، حتى المضيفات كن يصرخن ويتمسكن ببعضهن. استمرت محاولات قائد الطائرة الهبوط بها على أرض مطار بغداد الدولي، لكن الطائرة كانت تأبى النزول، فكلما نزل بها، زاد الاهتزاز أكثر وزاد صراخ الركاب أكثر.. ثم فجأة تسارعت الطائرة بشكل مرعب وهي تتجه إلى السماء من جديد، وإذا بصوت قائد الطائرة يحدث المسافرين بصوت متعب، ويعتذر عن عدم تمكنه من الهبوط بسبب العاصفة الرملية، وأخذت الطائرة تدور في مسار دائري حول بغداد بانتظار توجيهات برج المراقبة.

ساد الصمت، إلا من همهمات الركاب وهم يدعون الله أن ينجيهم من هذا الكرب. وتحولت الفرحة إلى خوف ورعب، ورغم أنها لم تتجاوز العشر دقائق على الأغلب، إلا أنها كانت سنين، تركت في نفس الفتى شيء من الخوف المرضي (فوبيا) من الطائرات، ظل يلازمه فترة طويلة، تخلص منه تدريجيا، لكن بقي منه أثر يظهر مع كل رحلة.

عـاد قائـد الطائـرة لمخاطبـة الـركاب مـن جديـد، وأخـبرهم هـذه المـرة أنـه سـيتوجه إلى مطـار آخـر لم يذكـر اسمـه، ثم انحنـت الطائـرة وأخـذت مسـارا جديـدا، وكـرر محاولـة الهبـوط. انتـشر الخـوف بـين الـركاب مـن جديـد، وبـدى بعضهـم وكأنـه يسـتعد للمـوت، فهـذا يتشـهد وذاك يتشـبث بالكـرسي وتلـك تمسـك يـد زوجهـا وهـذه تحتضـن أطفالهـا في محاولـة غريزيـة لحمايتهـم.. والفـتى شـد الحـزام عـلى نفسـه بقـوة، يسحبـه ويشـده أكـثر مـع كل اهـتزازة، ويتفحصـه كل ثانيـة ليتأكـد أنـه لا يـزال مربوطـا باحـكام، وهـو مـع كل ذلـك الهلـع والاضطـراب، ظـل يراقـب الجنيحـات في تعجـب.

عـادت الطائـرة للاهـتزاز العنيـف مـرة أخـرى، وزاد الاهـتزاز مـع الـنزول أكـثر، كان وضعـا صعبـا جـدا عـلى الجميـع، لكنـه انتهـى خـلال دقائـق بهبـوط آمـن.

لكن..

لم يكـن المطـار الـذي هبطـت فيـه الطائـرة عاديـا، فشـاهد الفـتى منصـات صـواريخ حربيـة تنتصـب هنـا وهنـاك، ثم جـاء جنـود مدججـون بالسـلاح يأمرونهـم بالتحـرك سريعـا عـبر ممـرات ودهاليـز غريبـة لا تشـبه مـا رآه في مطـار البـصرة، انتـشرت عـلى جدرانهـا صـور صـدام حسـين بعـدة أشـكال، واحـدة بـزي عسـكري وهـو يصـوب بندقيتـه عـلى هـدف، وأخـرى ببدلـة رسميـة ممسـكا بسـيجار كـوبي فاخـر وتتطايـر مـن عينـاه نظـرة مرعبـة، وأخـرى وهـو يقـرأ كتابـا، وأخـرى وهـو يـشرب القهـوة، وأخـرى وهـو يتفقـد الجنـود في سـاحات المعـارك .. ومـا أكثرهـا !

يـاالله ابـني يـاالله.. اتحـرك بسرعـة، منّـا.. منّـا.. منّـاك.. اتحـرّك ! صرخ الجنـود وهـم يوجهـون المسـافرين المرتبكـين والمرعوبـين مـن اضطـراب الهبـوط ومـن هـول المكان نحـو بوابـة الخـروج، قالـوا لهـم ان البـاص ينتظـرهم ليقلهـم إلى مطـار بغـداد الـدولي. أيـن نحـن إذن، مـا هـذا المكان ؟ تسـائل البعـض وهـم يتهامسـون وعـلى وجوههـم علامـات الخـوف، وكانـت الاجابـات تـأتي مـن الجنـود بصـوت شرس : شششششـش تحركـوا يـاالله، خلصونـا !

تسائل أحد الركاب بارتباك: وماذا عن حقائبنا ؟

جائه الجواب بعنف : ستأتيكم لاحقا إلى مطار بغداد ..

لم يعـرف الفـتى حـتى اليـوم أيـن هبطـت الطائـرة، لكنـه يقـدّر أنهـا هبطـت فـي مـدرج خـاص في أحـد قصـور صـدام حسـين فـي بغـداد، فالمكان لم يكـن مطـارا علـى أيـة حـال، بـل كان قـصرا فاخـرا، لا يـزال الفـتى يذكـر الأثـاث الـفخم والبـاب الكبـير المقـوّس، والثريـات الضـخمـة المعلقـة عـلى السـقف. كمـا أن الجنـود كانـوا مـن الحـرس الجمهـوري، والباصـات الـتي أقلتهـم مـن هـذا المـكان المجهـول إلى مطـار بغـداد كانـت باصـات عسـكرية.

***

## في بغداد

انتهت رحلة الفتى الشاقة بوصوله إلى فندق "سميراميس" وسط شارع الرشيد في بغداد على ما يذكر، فتغير الحال وارتاح صاحبنا ونزل يتفقد المكان ويتجول في المدينة، عَبرَ الشارع المقابل وبلغ "كورنيش" نهر دجلة، ويا له من نهر ساحر، ذلك الذي يقسم بغداد بين الرصافة والكرخ، وكان الفتى مولعا بالشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي منذ صغره، فاستحضر الشاعر وأحب المكان، بكل ما فيه من بساطة وجمال، تنتشر على طوله وعرضه عربات باعة "الشربت البارد" و "الموطة"* العراقية اللذيذة يهتفون : برّد على قلبك .. شربت .. شربت .. موطة ..

ثم عرج على شارع "أبو نواس" الذي تنتشر فيه مطاعم "السمك المسكوف"، تنادي المارة برائحة أسماك الشبّوط الطازجة ومنظرها الساحر وهي معلقة بعيدان الحطب أمام كومة جمر. وعلى دجلة، صبية يمرحون، وصيادون يمخرون عباب النهر بمراكبهم الصغيرة ( البَلَم )، يصطادون بشباكهم، أو ينقلون الركاب من ضفة الكرخ إلى ضفة الرصافة والعكس. إنها بغداد الجميلة، والتي كانت تحاول أن تطل برأسها الحزين إلى عالم الفرح، وهي التي خرجت لتوها من حرب الثمان سنوات ضد إيران، حصدت من شبابها الكثير، والتهمت من روحها المرحة شيئا لن يعود بسهولة.. روح أبو نواس، روح المتنبي وصفي الدين الحلي ومعروف الرصافي ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي ومحمد مهدي الجواهري، روح الطرب الأصيل والمقامات العراقية الساحرة، روح الفن التشكيلي الجميل وتماثيل

* الشربت شراب بارد مشهور في العراق، والكلمة تركية على ما يبدو، والموطة هي المثلجات - آيسكريم

عظماء العراق التي كلما حكم العراق حاكم، هدم تماثيل الذي قبله، حتى تمثال أبو جعفر المنصور مؤسس بغداد وباني حضارتها التاريخية العريقة، لم يسلم من التخريب بحقد أسود توشحت به العراق حين أستبيحت من كل حاقد !

ونحنُ في بغدادَ من طينِ
يعجنه الخزّاف تمثالا
دنيا كأحلام المجانينِ
و نحن ألوانٌ على لجّها المرتجّ
أشلاءً وأوصالا !

بدر شاكر السياب

استبيح العراق وتمزق، وغدت مدنه اليوم خاوية مثل جسد ميت لا روح فيه، تحطمت تلك الروح الأصيلة، ولم يعد فيها اليوم سوى شعارات طائفية بائسة حلت محل تلك الروح الظريفة التي يتغنى بحكاياتها الشرق والغرب عبر التاريخ، روح المرح والبهجة، روح "دعبول البلام" الذي يقصده من يريد الانتقال بين ضفتي دجلة ليسمعوا نكاته وأحاديثه الظريفة التي لا تنتهي، روح "شيخان العربنجي" الذي كان يناديه أهل بغداد "الزيج" لأنه كان يرد على أي كلام لا يعجبه باصدار صوت قوي من فمه (عفطة) تثير ضحك الجميع في أزقة بغداد وحواريها. روح "جعفر آغا لقلق" الذي كانت ملاهي بغداد تكتظ بالحضور للاستماع إلى وصلاته الهزلية التي أشتهر بها. روح

"حسّـون الـبزّون" و "حسـقيل أبـو البالطـوات" (بائـع الجاكيتـات)، وروح الكثـير مـن شخصيـات أهـل بغـداد ممـن ذكـرهم المـؤرخ عبـاس بغـدادي فـي كتابـه الرائـع "بغـداد فـي العشرينـات"، والـذي سرد فيـه مجموعـة ضخمـة مـن الشخصيـات المشهـورة والحـرف والمهـن الـتي كانـت منتـشرة في بغـداد، وكذلـك العـادات والتقاليـد الاجتماعيـة الـتي مـيزت هـذه المدينـة العريقـة ومـيزت أهلهـا، مـن الشـقاوة و "الفتونـة" إلى الضحـك والظرافـة، إلى الفـن والشـعر والأدب .. وقـد شـاهد الفـتى بنفسـه كثـيرا مـن شـواهد تلـك الـروح الجميلـة قبـل أن تهـب ريـاح السمـوم الصفـراء !

بالذي أملى على الأمة صك الانتدابِ،
والذي غيّر في بغداد مجرى الانتخابِ،
والذي أبقى له في سورنا تسعين بابِ،
علمينا.. كيف عمران يرجى من خرابِ ؟!

علي الشرقي*

المهـم.. تجـول الفـتى في بغـداد، وزار فـي اليـوم التـالي "نصـب الشـهيـد" فـي الرصافـة، ذلـك البنـاء الفـيروزي المهيـب، بقبتيـه العباسـيتين المتقابلتـين بهندسـة معماريـة عظيمـة، مـن تصمـيم سـامان أسـعد كمـال. كان الفـتى قـد شـاهد المبـنى قبـل ذلـك مـن بعيـد لكـن لم يدخلـه، وحـين رآه هـذه المـرة وهـو راكـب فـي التكسـي، سـأل السـائق عنـه فأجابـه إنـه "نصـب الشـهيـد". أذهتلـه عبقريـة التصمـيم، فقـد

* علي بن الشيخ جعفر الشرقي، شاعر عراقي توفي عام 1964

كانت القبتان كما وأنهما تتفتحان كلما قطعت السيارة مسافة وهي تمر بجانب النصب التذكاري، فقرر النزول والتجول في المبنى بعد أن أكد له السائق أنه مكان جميل وبداخله نافورة ماء، ترمز لدماء الشهداء التي نزفت من أجل الوطن.

والفتى يتذكر الكثير من الأماكن التي زارها ولا تزال عالقة في ذاكرته الخربة، لكنه لا يتذكر أسمائها. يتذكر أنه قضى نهارا في منتجع جميل في "الحبانية"، بناء على نصيحة موظف الاستقبال في الفندق، ومع أن الرحلة كانت طويلة بعض الشيء، لكن سحر المكان كان يستحق ذلك العناء فعلا، ولا تزال صورة النخيل الباسقات على مد البصر شاخصة في ذاكرة صاحبنا، يسترجعها كلما قرأ شيئا من قصائد بدر شاكر السياب ..

عيناكِ، غابتا نخيل ساعة السحر،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر،
عيناكِ حين تبسمان، تورق الكروم،
وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

أو حين يقرأ للجواهري ..

حييت سفحكِ عن بعد فحييني *** يا دجلة الخير يا أم البساتين
حييت سفحك ظمآنا ألوذ به *** لوذ الحمائم بين الماء والطين
يا دجلة الخير يا نبعا أفارقه *** على الكراهة بين الحين والحين

***

لقد كانت بغداد جميلة حقا آنذاك، سحرت صاحبنا بعراقتها وغناها وتنوعها، لكن أجواء تموز ( يوليو) الحارة كانت تلقي بظلالها على الناس، فتثير غضبهم وترفع وتيرة العصبية لديهم طوال الوقت. ترى هل الطقس الحار هو سبب عدوانية هذا الشعب وميله للحروب كما يقول ابن خلدون في مقدمته، أم طبائع أهل العراق البدوية كما يرى عباس العزاوي في "عشائر العراق"، أم هي خليط من هذا وذاك كما يقول د. علي الوردي في "شخصية الفرد العراقي"* ؟!

***

أمضى صاحبنا عدة أيام جميلة في بغداد، حتى أنه حضر حفلات غنائية لكاظم الساهر وسعدي الحلي، وكان يحظى كل يوم بما لذ وطاب من الطعام في الفنادق الفاخرة، ذلك أن الأسعار في ذلك الوقت كانت متدنية جدا في العراق بسبب حربها مع إيران، فكان على ما يذكر سعر الدينار العراقي يعادل حوالي 100 فلس كويتي، فكانت المائة دينار كويتي تعادل ألف دينار عراقي، لكن الألف دينار في العراق هي ألف دينار، فالبوفيه المفتوح في فندق شيراتون بغداد مثلا كان بحوالي عشرين دينارا عراقيا، أي حوالي دينارين كويتي.

* تحدث ابن خلدون في مقدمته عن تأثير المناخ على طبائع الشعوب، وكتب بعمق وتفصيل عن اختلاف سلوك البشر تبعا لاختلاف المناخ وطبيعة الأرض التي يعيشون فيها

التقى الفتى ببعض معارفه في بغداد، والتي كانت هي والبصرة آنذاك وجهة الكويتيين الأولى للسياحة، نظرا لقربها الجغرافي من بلادهم، ولتدني الأسعار وتنوع الأماكن السياحية في العراق عموما، يجلبون منها كثيرا من حاجياتهم اليومية المفضلة، مثل القيمر العراقي المشهور والأسماك المجففة بالملح والشمس، وغيرها من المنتجات العراقية الشعبية. والفتى يذكر أنه شاهد ذات مرة قمم الجبال المتوجة بالثلوج البيضاء في شمال العراق (في زاخو على ما يذكر)، وذلك كان بمثابة السحر لفتى قادم من صحاري الكويت القاحلة.

تجول الفتى في شوارع بغداد، وأكل "لفّة كص" المشهورة (سندويش شاورما)، وأكل "تمّن عنبر" (رز عراقي) وشرب الشاي المخدّر وشرب الشربت، وأكل "الموطة" ودخل بعض المتاحف. زار مدينة الطب وعالج عيونه هناك، ومر أمام جامعة بغداد، وشاهد منظرا لن ينساه طوال حياته، شاهد ثلاث جثث تتدلى من عارضة خشبية أمام مدخل جامعة بغداد، بجانبها لوحة كتب عليها "جريمة" أولائك البائسين، وتحذير شديد لكل من تسول له نفسه الاعتراض على السلطة !

أمضى صاحبنا عدة أيام جميلة في بغداد، لكن كانت تنغصها بعض المنغصات بين الحين والحين. ولم تكن الوحدة من بين تلك المنغصات، فالشاب وحيد بالفطرة على ما يبدو، وقد أدرك هذا منذ صغره وتقبله، فكان وحيدا حتى وهو بين الناس، يشعر بوحدته أكثر مما يشعر بمن حوله، وهو لا يشعر بالحزن من هذه الوحدة أبدا، لكنه يشعر بالضيق والقرف من لوم الآخرين ومواعظهم ونصائحهم التي لا تتوقف حول أهمية الخروج وزيارة الناس والجلوس معهم.

ولم تكن حرارة تموز اللاهب فحسب من بين تلك المنغصات أيضا، وإنما ما عاناه ذات ليلة بعد أكلة سمك مسكوف في أحد المطاعم المنتشرة على نهر دجلة. يذكر الفتى جيدا تلك التجربة المريرة، حيث شعر بالتوعك الشديد مساء ذلك اليوم، إثر تسمم غذائي بالتأكيد، وزاد الألم إلى أن طلب الاسعاف الذي حضر إلى الفندق وحمل الفتى إلى مركز طبي لا يذكر اسمه، لكنه يذكر جيدا البؤس الذي فيه، والذي يعكس بوضوح مأساة العراق التي لازمته عبر التاريخ، منذ حمورابي والعباسيين والمغول والتتار والصفويين والعثمانيين والبريطانيين والشيوعيين والبعثيين والأمريكان .. من بقي ؟!

في المستشفى كانت الأسرّة الحديدية مهترئة، والفراش من الاسفنج القديم المتآكل، مكشوف بلا أغطية، تراكمت عليه الدماء والقيئ والأوساخ، ألقى المسعفون بالفتى على احداها مثل قطعة خردة، ثم حضر الممرض وهو يجهز الحقنة بالدواء بعد أن حقن بها كل المرضى الآخرين، فكان عندما ينتهي من حقن أحدهم، يشعل قداحة السجائر على رأس الإبرة، ثم يحقن المريض الآخر .. هكذا ببساطة كانت تتم عمليات التعقيم، في بلد يصنف ضمن كبار منتجي البترول في العالم، ويمر به نهران عظيمان، وأرض زراعية خصبة، وشعب قادر على العمل والانتاج !

تركت تلك التجربة المؤلمة شيئا في نفس الفتى، فقرر العودة إلى بلاده قبل الأوان. كان ذلك في 31 يوليو 1990، قبل الاحتلال العراقي لبلاده بأيام. جعلته يفهم بعد ذلك جيدا معنى اللطف الإلهي، وكيف تكون المصائب أحيانا سبيلا للنجاة من مهالك أكبر.

## قبيل الاحتلال

كان ممن التقاهم الفتى في بغداد قبل مرضه أحد أقاربه الذي كان مسافرا مع مجموعة كبيرة من أصدقائه، وهم عسكريون تخرجوا لتوهم من دورتهم التدريبية، وقرروا قضاء إجازتهم في العراق. لكن حالة الفتى الرثة جعلت قريبه يغير رأيه، ويقرر العودة معه إلى الكويت في سيارته، فكان هذا القرار سببا في انقاذه من الوقوع في الأسر، كما وقع مع بقية زملائه، ولا يزال قريبه يذكر له هذا الموقف، ويعتبره منقذا له من الهلاك المحقق.

المسافة من بغداد إلى المركز الحدودي مع الكويت في سفوان حوالي 500 كلم بالسيارة عن طريق الديوانية والناصرية إلى الزبير ثم سفوان. وفي هذا الطريق، في ذلك اليوم من آخر أيام تموز يوليو 1990، كانت نية الغدر واضحة تماما، فالطريق كان مزدحما بالسيارات العسكرية الثقيلة، الشاحنات المحملة بالدبابات والراجمات والصواريخ وحاملات الجنود على مد البصر طوال الطريق منذ خروجهم من وسط بغداد، ولكم أن تتخيلوا ما واجهه الفتى وقريبه من صعوبات ومضايقات من قبل الجنود خلال هذه الرحلة البائسة. فلم يخرجا من العراق إلا وقد غشاهم الخوف والشك من تلك التحركات والتجمعات العسكرية الهائلة على الحدود مع بلادهم الكويت. ولم يطل الأمر أكثر من يومين حتى تأكدت تلك الشكوك، وتحولت مشاعر الخوف البسيطة إلى حالة رعب دائمة.

صحيح أن الخلاف السياسي بين البلدين، الكويت والعراق، كان معروفا قبل ذلك بفترة طويلة، الصحف والتلفزيون والإذاعة كانت تنقل الأخبار عن

المحادثات والزيارات المتبادلة وتصريحات كبار المسئولين عن هذا الخلاف بشكل يومي، لكن لم يكن ذلك في ذهن الفتى الذي لم يكن أصلا يقدّر أبعاد الحدث والخلاف، ولم يكن بمقدوره أن يتوقع تطور الخلاف إلى احتلال.. بل إن مسئولين كبار ومتخصصين ذوي خبرة لم يتوقعوا ذلك، فكيف بصاحبنا الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره !

***

## ليلة الهجوم

مساء يوم الأربعاء 1 أغسطس 1990 كان الفتى يحتفل مع أخوته وأقاربه بعرس أحد أبناء عمومته (فهد)؛ ويا له من رجل تعيس، هو وكل الذين أفسد "الأشاوس" فرحتهم تلك الليلة. كان مساء جميلا وهادئا، فيه الكثير من الفرح والسكينة والاطمئنان، وكان صاحبنا يروي لأقاربه وأصحابه في العرس تفاصيل رحلته الغريبة إلى بغداد، يتحدث بكل حماس عن مشاهداته والمواقف الكثيرة التي تعرض لها، وآخرها طوابير الجيش والسلاح الممتدة من بغداد إلى سفوان على حدود الكويت. مضت الساعات سريعة في العرس، عندما كان للأعراس رونقها آنذاك، فاختفت مع ما اختفى من الأشياء الجميلة في حياتنا، ولا ندري هل السبب أن الأمور فعلا تغيرت، أم نحن فقط الذين كبرنا وكبرت همومنا حتى لم يعد يبهجنا شيء !

مع بزوغ الفجر، داهمت الأصوات المرعبة مسامع الناس الآمنين، أصوات لم يألفوها من قبل بالتأكيد، أصوات مرعبة أيقظت الجميع، وأجبرتهم على الخروج من بيوتهم إلى الشارع بغية استكشاف مصدرها وفهم ما الذي يجري. خرج الفتى مع الخارجين، ووقف أمام منزله وإذا برتل من السيارات العسكرية أوله في منتصف الجسر الواقع أمام منزله على بعد 500 متر تقريبا، وآخره حيث يمتد البصر باتجاه الشمال، قادمة من العراق. يا له منظر مرعب، ويا لها من أصوات مدوية تهز المنازل مع كل قذيفة تنطلق من دبابة أو جندي يحمل قاذفة "آر بي جي" على كتفه.. إنها معركة، إنها حرب حقيقية وقف الجميع مذهولين من هول الموقف وهول الصدمة وهول الأصوات المرعبة والنيران المشتعلة والشظايا المتطايرة.. صوت حفيف سريع اخترق

مسامع الفتى وهو واقف، وإذا بقطعة حديد منطعجة وأطرافها حمراء يتصاعد منها الدخان، ارتطمت بسور حديقة منزل الفتى، وليس بينه وبين تلك الشظية الكبيرة سوى أمتار، لو أصابته لمزقته كل ممزق.. لكنه لطف الله من جديد.

كان الجنود العراقيون يقصفون مدينة الكويت بمختلف الأسلحة، وما هي إلا لحظات حتى جائهم رد شتتهم وبعثر أشلائهم على الجسر ومن فوقه، جاءت قذيفة شاهدها الفتى بمذهول وهي تخترق السماء من جهة البحر، وسقطت في منتصف الرتل الموجود على الجسر في طريق الجهراء المؤدي إلى العبدلي، وإذا بالباصات المحملة بالجنود تحترق بمن فيها، والجنود يخرجون منها والنيران تلتهم أجسادهم، حتى ألقى بعضهم بنفسه من فوق الجسر على الأرض !

إنها الحرب إذن، حرب حقيقية غير التي شاهدها الفتى في التلفزيون، حرب بصرخات حقيقية ونيران حقيقية وجنود يسقطون قتلى حقا وليس تمثيلا.

شعر والد الفتى بالخطر قريبا من منزله، فقرر حماية أفراد عائلته فانتقل بهم سريعا إلى بيت أخيه، بينما قاد الفتى سيارته إلى بيت خاله الكبير، وشاهد في طريقه الكثير من الجنود المنسحبين. وفي بيت خاله بدأت صفحة جديدة في حياة الفتى، بدأت حين داهمهم خبر استشهاد خاله الأوسط في قاعدة علي السالم الجوية، إثر قصف صاروخي من الجيش العراقي على القاعدة الجوية التي كان الجنود الكويتيين فيها، ومنهم خال الفتى، كانوا قد قرروا المقاومة. كان خبرا صاعقا هز الجميع، وأولهم خاله الأكبر، حيث رأى الفتى لأول مرة في حياته رجلا كبيرا يبكي بهذه الحرقة والألم. واستمر الرعب

والاضطـراب حيـث أن خـال الفـتى الأصغـر لم يرجـع هـو الآخـر بعـد التحاقـه بوحدتـه، والحـال كذلك مـع كل أخوالـه وأعمامـه وأبنـاء عمومتـه العسـكريين الذيـن فُقد الاتصـال بهـم، ولم تُعـرف مصائـرهم إلا لاحقـا، بـين أسـير وجـريح ومفقـود لم يُعـرف مكانـه إلا بعـد أسـابيع، ممـن اضطـروا للانسحـاب بآلياتهـم العسـكرية إلى مواقـع داخـل حـدود المملكـة العربيـة السـعودية بـرا أو بحـرا أو جـوا.

كانـت الفاجعـة كبـيرة، أرهقـت خالـه الكبـير وكسـرت ظهـره، فقـد اثنـين مـن أشـقائه في يـوم واحـد، مـوت أحـدهم بقصـف صـاروخي وهـو يقـاوم الاحتـلال في قاعدتـه العسـكرية، وفقـد الثـاني مـع رفاقـه الجنـود بـلا خـبر أو أثـر، مـا تـرك لـه عائلـة كبـيرة عليه أن يتـولى أمرهـا. وسـط هـذه الأجـواء المؤلمـة، وجـد الفـتى نفسـه مجـبرا عـلى التـصرف ومسـاندة خالـه الـذي هـدّه الحـزن وأقعـده.

كانـت أول مهمـة جـادة صادفـت الفـتى في الأيـام الأولى للاحتـلال هـي العثـور عـلى جثـة خالـه الـتي لم يسـتلموها، فتوجـه في اليـوم الثـاني للاحتـلال إلى قاعـدة عـلي السـالم الجويـة عـلى طريـق السـالمي باتجـاه السـعودية، فطـرده الجنـود ولم يسمحـوا لـه بالدخـول والتفتيـش عـن الجثمـان، وأخـبره أحـدهم بـأن جميـع الجثـث تم نقلهـا إلى المستشـفيات.

توجـه صاحبنـا إلى مستشـفى الجهـراء، وأخـذ يفتـش ويسـأل وسـط الفـوضى والهلـع الـذي سـاد المـكان. قـرأ قـوائم الشـهداء الـتي توفـرت آنـذاك في مستشـفى الجهـراء - أقـرب المستشـفيات مـن قاعـدة عـلي السـالم الجويـة - ولم يجـد اسم خالـه فيهـا. فقيـل لـه أن يتوجـه إلى منطقـة صبحـان، حيـث فيهـا ثلاجـات لحفـظ جثـث المـوتى، فتوجـه الفـتى إلى المـكان مسرعـا، يلهـج بالدعـاء، وشـاهد لأول مـرة نقـاط التفتيـش العراقية "السـيطرة" تنتشر في

شوارع بلاده في منظر يدمي القلب. لم تكن جديدة عليه، فقد شاهدها منذ كان طفلا يسافر مع والده للعراق كثيرا، لكنها هذه المرة ليست في شوارع العراق، وإنما في شوارع بلاده الكويت.

دخل الشاب الصغير أماكن لم يكن يتخيل نفسه يوما يدخلها، شاهد العجائب لمن هو في مثل سنه، شاهد جثثا داخل ثلاجات الموتى، وشاهد رجالا يبكون ويصرخون، وتعرض للتفتيش والتحقيق عشرات المرات من قبل جنود مدججين بالسلاح.. إنها الحرب التي لا تبقي ولا تذر، وتنسف كل القوانين والأعراف والقيم، وتحيل البشر لوحوش يقتلون ثم يعودون للأكل دون اشمئزاز، وينامون على التراب وسط أصوات القنابل وأزيز الطائرات والدبابات بلا اكتراث. أشباه أموات يعيشون لحظة بلحظة، حتى إذا أشرقت عليهم شمس يوم جديد، لم يفرحوا به ولم يعدّوه سوى ضربة حظ كتب لهم فيه يوما جديدا، بائس كئيب مثل الذي قبله. لا حياة في الحروب، الجوع والخوف والتعرض الدائم للقتل عبثا يحيل الانسان لكائن آخر، يأكل وينام ويتنفس، لكنه ليس إنسانا على الاطلاق.

..

حديد ونار، حديد ونار
وثمّ ارتطام وثمَّ انفجار
ورعدٌ قريبٌ ورعد بعيد
وأشلاء قتلى وأنقاض دار
حديد عتيق لغزو جديد !

بدر شاكر السياب

***

لم يعثر الفتى على جثة خاله أبدا، أصابه ذلك بالغم والحزن، فانزوى ذات مرة بعد رحلة بحث مضنية، وحيدا في مكان، وبكى بكاء شديدا، كأنه طفل ضائع بين حشد من الغرباء. تلك كانت أيام صعبة، أصابت الكثيرين بالشلل واليأس. لكن.. "ما فائدة البكاء في زمن النحيب"، كما يقول الشاعر الألماني العظيم هيولدرلن ؟!

تستمر الحياة.. علم الفتى لاحقا أن خاله الشهيد قد دُفن مع من دفن من الشهداء والقتلى في إحدى المقابر، على يد الرجال الكرام الذين تطوعوا لهذه المهمة عبر البلاد. والحق أن أهل الكويت ضربوا أروع الأمثلة للتلاحم والتضامن الاجتماعي خلال فترة الاحتلال، وعلينا أن لا ننسى أن تلك التجربة المريرة كانت جديدة عليهم تماما، من السهل جدا على شخص ما أن يتحدث عما كان ينبغي أن يكون في ذلك الموقف، أو ينتقد ممارسات خاطئة هنا أو هناك من خارج الحدث أو بعد انتهائه، لكن في وقت الحدث الأمر مختلف، والناس تصرفوا من تلقاء أنفسهم ووفقا لطبيعتهم الخيرة. سرعان ما أظهروا تضامنهم لبعضهم البعض، وتطوعوا لخدمة المجتمع في مختلف المجالات، سرعان ما غابت الأنانية وحل محلها الإيثار والرحمة. ولا غرابة في ذلك، فقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن قيم التدين والإيثار والتضامن الاجتماعي تزيد وتنتشر بين الناس في أوقات الكوارث والأزمات والحروب. وهذا ما شاهده الفتى بنفسه منذ اليوم الأول للاحتلال العراقي لبلاده، فقد انتظم الناس في مجموعات، وتطوعوا لسد النقص في العمالة بعد أن اضطر معظم الأجانب إلى مغادرة الكويت عائدين إلى بلدانهم، وهذا حقهم، لكن خروجهم ترك فراغا كبيرا في كل مكان، عمل شباب الكويت على سد ما يمكن سده من خلال

التطوع في المستشفيات والجمعيات التعاونية والمخابز وحتى تنظيف الشوارع من أكوام القمامة التي تراكمت في الأيام الأولى للاحتلال.

تغيرت الحياة بسرعة، وانقلب الحال إلى غير الحال خلال أيام. جنود الاحتلال العراقيين تمركزوا في مواقعهم، ونصبوا سيطراتهم (نقاط التفتيش) في كل مكان بسرعة، ثم بدأت عمليات النهب والسرقات المنظمة التي كان جنود الجيش العراقي ينفذونها بشكل يومي، فكان صاحبنا يشاهد الشاحنات وناقلات الجند وحتى ناقلات الدبابات تحمل يوميا آلاف المسروقات وهي تتجه من الكويت إلى العراق، وكان يقضي بعض الوقت إذا عاد لمنزل والده المواجه لطريق الجهراء، يراقب نهب بلاده كل يوم على أيدي الجنود العراقيين (الأشاوس).. حتى بات منظرا يوميا مألوفا، بل ومضحكا أحيانا، حيث كانت كثير من المسروقات مما يعف عن حملها أي رجل سوي، مثل الأثاث المستهلك والأجهزة المكسورة والملابس القديمة والأواني المنزلية التالفة !

أحقا ؟! أهذا هو ما كنا نسمع بأنه "رابع جيش في العالم" ؟ أهؤلاء الذين كنا نتبرع لهم خلال حربهم مع إيران، ونرفع لهم "العقال" احتراما وتبجيلا ونسميهم "حماة البوابة الشرقية" ؟! أهؤلاء هم حقا "الأشاوس"، أم مجرد لصوص صغار بلا كرامة ؟! ترى، أكان هذا بفعل "أوامر عسكرية" صدرت لهم من قادتهم البعثيين، أم بفعل انحطاط ألمّ بهم منذ تسلط عليهم هؤلاء المجانين.. من يدري ؟!

الأكيد، أن حال العراق لم يكن كذلك خلال فترة حكم الملك فيصل الأول، أول ملوك العراق الذي حكمهم منذ 1921 إلى عام 1933، ابن شريف مكة

ومؤسس مملكة الحجاز الهاشمية، الملك حسين بن علي الهاشمي، الذي كان أول من نادى باستقلال العرب عن الدولة العثمانية وقاد الثورة العربية الكبرى في يونيو 1916. فمع الملك فيصل الأول بُني العراق الحديث، وتوطدت أركانه، وكان فيه تقسيم واضح للسلطة بين البلاط الملكي أو العرش، أي الملك، وبين البرلمان، وبين مجلس الوزراء. فلكل صلاحياته التي تحد من سلطات الآخر وتمنع تهوره وانفراده بالسلطة. كما كان الجيش مؤسسة وطنية بعيدة عن التدخل في السياسة.

والأكيد، أن حال العراق لم يكن كذلك مع ابنه الملك غازي الأول، رغم رعونته وطيشه وسكره طوال الوقت، وهو الذي كان من أوائل من أذاع علنا المطالبة بضم الكويت إلى العراق بعد أن أشاد بالنازيين وتغنى ببطولاتهم، فأهداه هتلر جهاز إذاعة كامل سري ومتطور آنذاك، فراح يتحدث فيه كل يوم فرحا كالطفل. ومع هذا، كان حال العراق أفضل بكثير من حالهم بعد ذلك، فمؤسسات الدولة كانت تعمل وتتطور بشكل لافت، والخدمات تتحسن، وتتوسع مؤسسات الدولة لتصل إلى أطراف البلاد المترامية. لقد كان الملك غازي محبوبا جدا لدى الشعب كما تذكر المصادر العراقية، ولم يكونوا مدفوعين لهذا الحب بالقوة كما حدث لاحقا. وتذكر المصادر العراقية أنه عندما توفي الملك غازي بحادث سيارة اصطدم فيه بعمود إنارة سقط عليه، خرجت "هوسة" شعبية تقول :

يا الغسلت جسم الملك،
شنهو لقيت صوابه،
سيارة لو ضربة عمد،
لو قنبلة من صحابه ؟!

فقد انتشرت الشكوك حول نوري السعيد، رئيس الوزراء آنذاك، بأنه وراء تدبير مقتل الملك غازي ليؤول الحكم إلى ابنه الصغير الملك فيصل الثاني، ويتمكن هو من السيطرة على العرش عبر مجلس وصاية، وعلى مجلس الوزراء الذي كان رئيسه وبقي كذلك إلى يوم مقتله مع من قتلوا في الأسرة الملكية بالانقلاب العسكري على يدي عبدالسلام عارف وعبدالكريم قاسم وبقية العسكر الطامحين للسلطة. فرغم قسوة تلك الأيام، لم يكن العراق بنصف السوء الذي كان عليه مع قدوم العكسر والبعثيين.

بل لم يكن حال العراق بذلك السوء حتى خلال فترة حكم "الملك الطفل" فيصل الثاني ابن الملك غازي، رغم ما قيل عن فساد الوصي عليه خاله الأمير عبدالإله. فقد استكملت الدولة بناء أركانها وتطورت مؤسساتها وحافظ الانسان العراقي طوال تلك السنين على كرامته وإنسانيته.

الأكيد، أن هذا العبث والانحراف الكبير صاحب حكم العسكر وانقلاباتهم الدموية منذ أقدم عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف على قتل الأسرة المالكة، بعد أن غدروا بهم وفتحوا عليهم النار رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا أمام باب القصر الملكي في بغداد (قصر الرحاب) بانقلاب 14 تموز/ يوليو 1958. وما تلا ذلك من تصفيات وقتل وسحل لجثة الوصي على العرش عبدالإله بن علي الهاشمي. ففتح بذلك شهية العسكر للانقلابات الدموية، إذ سرعان ما انقلب عبدالسلام عارف على صاحبه ورفيق دربه وشريكه بانقلاب تموز 1958 عبدالكريم قاسم، بعد موت أول رئيس للعراق في العهد الجمهوري محمد نجيب الربيعي أوائل عام 1963، ولا تزال صور جثة عبدالكريم قاسم بعد إعدامه رميا بالرصاص والتمثيل بجثته أمام الكاميرات حاضرة في ذاكرة العراقيين

والعالم. ثم مقتل عبدالسلام عارف في ظروف غامضة بسقوط طائرته، ثم إجبار أخيه عبدالرحمن عارف على التنحي عن الحكم بانقلاب أبيض نفذه أحمد حسن البكر ورفيقه صدام حسين، وهذا الأخير لم يدّخر جهدا في الانقلاب على صاحبه البكر في يوليو 1979، ليفتح باب الحروب والقمع والتعذيب على مصراعيه. من حرب الثمان سنوات مع إيران، إلى ضرب الأكراد في حلبچة بالسلاح الكيماوي عام 1988، إلى غزو واحتلال الكويت في 2 أغسطس 1990، إلى حرب تحرير الكويت عام 1991، إلى قمع انتفاضة الجنوب في نفس العام، إلى سقوط بغداد تحت الاحتلال الأميركي عام 2003، وما تلاها من أحداث دموية لا تزال تجري فيها دماء الضحايا والأبرياء بلا مبرر حتى اليوم، وما بين هذا وذاك، تاريخ طويل من القمع والخوف والتعذيب والإرهاب، ساد العراق من أقصاها إلى أقصاها، وكان فيها قتل الرجل مثل قتل الذباب كما قال ألبير كامو عن موت أهل "وهران" بالجملة بسبب الطاعون.

هل كان ابن خلدون محقا حين ربط سلوك البشر بالمناخ يا ترى ؟!

عند تموز الحارق، وآب اللهّاب شيء من الخبر.. فقط تأملوا هذه الأحداث وتواريخها :

- انقلاب 14 تموز / يوليو 1958 الذي أطاح بالملكية في العراق
- ثورة الرشيد في 3 تموز 1963 والتي فشلت في الاطاحة بالبعثيين
- انقلاب 17 تموز 1968 الذي أطاح بعبدالرحمن عارف وجاء بالبعثيين للحكم
- انقلاب 30 تموز 1968 الذي سلب فيه أحمد حسن البكر وصدام حسين السلطة من رفاقهم
- "مجزرة الرفاق" في 22 تموز 1979 والتي جرت في قاعة الخلد الشهيرة،

حـين أعـدم صـدام معظـم رفاقـه في الحـزب لينفـرد بالسـلطة.

كان البابليـون يعتقـدون أن الإلـه "تمـوز" يموت مرة كل عام، فتختفي معشـوقته "عشـتار" إلاهـة الأمومـة والخصوبـة بحثـا عنـه في عـالم الأمـوات، وبسـبب غيابهـما يجـف الـزرع والـضرع ويعـم القحـط والجـوع، إلى أن تجـده وتعـود بـه للحيـاة مـرة أخـرى، فيعـود النمـاء والخصوبـة لـلأرض مـن جديـد وتزدهـر الحيـاة. مـوت تمـوز في حضـارة بـلاد الرافديـن هـو الصيـف، وعودتـه مـع عشـتار هـو الربيـع.. هـذا مـا نجـده في قصائـد الشـعراء والأمثـال الشـعبية عنـد أهـل العـراق.

تموز يموت على الأفق
وتغور دماه مع الشفق
في الكهف المعتم والظلماء
نقالة إسعاف سوداء
وكأن الليل قطيع نساء
كحل، وعباءات سود
الليل خُباء
الليل نهار مسدود

بدر شاكر السياب - أغنية في شهر آب

***

جمهورية صدام كانت تشبه جمهورية هتلر النازية، جمهورية خوف ورعب كما صورها الشاعر والأديب الألماني بيرتولت بريشت في مسرحيته الرائعة "البؤس والخوف في الرايخ الثالث"، والتي قدم فيها صورة شديدة البؤس والقتامة عن بلاده تحت حكم هذا الديكتاتور المهووس بالسلطة وجنون العظمة وحب التوسع، وحذر فيها أولائك السذج وأصحاب النوايا الطيبة ممن كانوا يعتقدون أن هذا النظام المتوحش إنما يمثل حدثا عابرا، يحمل بذور فنائه في أحشائه، وسيختفي من تلقاء نفسه. إلا أن بريشت رد على هؤلاء الحالمين قائلا "أبدا.. إن نظاما كهذا يتجذر مع الوقت، ويحوّل كل فرد فيه - بسبب خوفه - إلى نازي صغير، لا يعرف كيف يتعامل حتى مع الحرية حين تأتيه وهو في مكانه، فتصبح العبودية للسلطة القمعية جزءا من شخصيته، وتظهر في كل عمل يؤديه". وفي لوحة مؤثرة، يكشف بريشت بعبقرية الأديب أبعاد التحول من إنسان إلى "روبوت" لا يفعل ولا يتصرف إلا بأوامر، وبحسب ما تم برمجته عليه مسبقا، وإذا غابت التعليمات، تاه وغرق بمشاعر الحيرة والارتباك المغلف بالخوف والرعب..

يصور بريشت ذلك في مشهد محاكمة مجموعة من اللصوص قاموا بسرقة أموال تاجر يهودي، واعتدوا عليه بالضرب. فيظهر القاضي - الروبوت - حائرا مرتبكا، لا يعرف كيف يتصرف دون تعليمات، هل يحكم على الشبان الألمان المجرمين ؟ لكن الضحية يهودي، هل يحكم لصالحه ؟! يلتفت القاضي يمينا ويسارا، نحو مستشاريه في المنصة، ويصرخ بهم "تعلمون أنني مستعد لفعل أي شيء، ولكن على الأقل يجب أن أعرف ما هو المطلوب مني حتى تتحقق "العدالة" !

وفي مشهد آخر، يصور بريشت أحد المعلمين المحترمين، وهو يرتعب خوفا من ابنه التلميذ في المدرسة، بعد أن سمع أنه "مخبر" لدى الشرطة السرية ضمن جماعة "شبيبة هتلر"، فيسأل زوجته : "ترى هل أسأت معاملته، أو تلفظت عليه بكلمة قاسية، أظنه غاضب مني وسيشي بي.. لا بد أن نهرب". وفي مشهد ثالث يصور بريشت ضياع القيم نتيجة الرعب والخوف، حيث يظهر كبير الأطباء وهو يشرح لمجموعة من صغار الأطباء والمتدربين "أخلاقيات المهنة" وضرورة معالجة أي مريض دون السؤال عن أصله وفصله.. ثم عندما يصل لمريض يتوجع في حالة يرثى لها، يتجاوزه بسرعة بعد أن يلمح على كتفه نجمة داود ويعرف أنه قادم من معسكر الاعتقال النازي ! ويواصل بريشت تصوير حالة الرعب التي سيطرت على المجتمع في مختلف طبقاته وفئاته من أبسط المهن والوظائف، إلى أرقاها. فها هو القسيس يتلو صلوات الرحمة على أحد الأموات في الكنيسة.. ثم حين يصل إلى عبارة "إرقد بسلام" يتلعثم ويضطرب وتتحجر كلمة "السلام" في فمه لا تقبل الخروج، خوفا ورعبا من أن يشي به أحد المخبرين، ويقول عنه أنه ينتقد الحرب !

تلك المآسي اليومية شهدها عراق صدام، بل عاش أسوأ منها، حين تحول المجتمع كله لمجموعة من الوشاة والمخبرين، وباتت الوشاية أقصر الطرق للانتقام من بعضهم البعض، إذ يكفي أن يتهم أحدهم أي خصم له في ذلك المجتمع المحكوم بالحديد والنار أنه "شتم الريّس" أو قال نكتة عن حزب البعث.. ليجد نفسه تحت التعذيب المفرط في غياهب سجن ما في مكان ما، لا يصل إليه حتى "الجن الأزرق" !

***

ما علينا..

استمر الفتى يراقب عمليات النهب والسرقات المنظمة، ويشاهد بلاده تتحول يوما بعد يوم إلى بلد آخر لا يعرفه ولم يألفه من قبل، حتى طال التحول صاحبنا نفسه، ومثله كل من عاش تلك التجربة القاسية. إذ سرعان ما أخذت أرفف الجمعيات والمحلات تفرغ من محتوياتها، ساد الشح وعمّت الفاقة كل مناحي الحياة، وأصبحت طوابير الخبز وطوابير السيارات على محطات البنزين تزداد طولا كل يوم، وأصبحت مشاهد السرقة والنهب حدثا يوميا منذ الأيام الأولى للاحتلال، ولأول مرة يسمع الفتى كلمة "فرهود"، والتي لم يكن يعرف معناها،إلى أن حضر ذات يوم هجوم همجي كاسح على أرفف إحدى الجمعيات ونهب محتوياته خلال دقائق، وفهم لاحقا أن هذا هو "الفرهود".

يذكر الفتى أنه "سطى" مع بعض أبناء خاله على بعض بيوت الجيران التي هجرها أصحابها، وسرق ما فيها من طعام وتموين وسلندرات الغاز، والتي أصبحت عملة نادرة بعد أسابيع من الاحتلال. كان يدرك أنها سرقة، لكنه كان يدرك أيضا أن خلفها ضرورة تبيح المحرمات، وأنهم أولى بها من المحتل.

وفي ذاكرة الشاب الصغير آلاف الحكايات والتفاصيل والمغامرات عن تلك الفترة، يذكر منها أنه ذات يوم ذهب إلى مناطق الكويت الداخلية بحثا عن حليب للأطفال، بعد أن نفذت جمعيات منطقته. وبالفعل استطاع الحصول على علبتين من جمعية اليرموك التعاونية على ما يذكر، لكن استغرق ذلك منه يوما كاملا، خرج فيه من الصباح وعاد في المساء.

ويذكر صاحبنا ذات مرة أنه شاهد جنودا عراقيين يمدون أسلاك اتصال من منطقة إلى أخرى، فترصد لهم وقام بتقطيعها بعد أن تهيأت له الفرصة المناسبة وهرب مسرعا، وراح يحكي عن هذا الموقف على أنه بطولة ما بعدها بطولة، وأنه من "المقاومة".. لكنه ليس الوحيد في ذلك على كل حال !

كان صاحبنا قد اعتاد المبيت في منزل خاله الكبير منذ بداية الاحتلال العراقي واستشهاد خاله الأوسط وانقطاع أخبار خاله الأصغر، وذات ليلة اضطر للعودة إلى منزل أبيه في وقت متأخر، كان جيش الاحتلال قد فرض حظرا للتجول لا يذكر بالتحديد متى يبدأ، ربما في السادسة أو السابعة مساء وحتى الصباح، وبطيش الشباب ركب سيارته ومضى وهو على ثقة بمعرفة طرق لا يعرفها العراقيون، غير أن المشوار الذي كان لا يتطلب أكثر من 5 دقائق تطلب منه ساعتين قضاها في هروب من دوريات "الأشاوس" الذين ملأوا البلاد بالرعب والخوف والجفاف، وصاحبنا لايزال يذكر وجوه العساكر الشاحبة بملابسهم الرثة وبنادقهم الجاهزة والمصوبة دائما نحو الناس، ولايزال يذكر وجه ذلك المذيع المزعج في برنامج "حياكم الله" ويذكر اشمئزازه وشعوره بالانكسار والقرف كلما سمع صيحاته وهتافات الجنود معه: "ها خوتي ها.." !

نضج الفتى قبل أوانه، وأكسبته تجربة الاحتلال بتفاصيلها ومآسيها اليومية خبرة الرجال، واستطاع أن يعقد صداقات مع بعض الجنود الذين يحتاجهم، في نقاط التفتيش (السيطرة) التي يمر عليها باستمرار في تحركاته بين بيت والده وبيت خاله وأماكن الخدمات، كالمخبز والجمعية ومحطات الوقود والمستشفى وغيرها. كانت السجائر هي عماد تلك العلاقات بالتأكيد، والفتى

كان يعرف هذا جيدا من سفره للعراق بصحبة والده في السابق، فكان والده رحمه الله إذا اقترب من مركز حدود سفوان، يطلب منه أن يخرج علبة السجائر ويضعها على مقدمة السيارة، فكان كلما قابل نقطة سيطرة، توجهت أعينهم نحو السجائر أو الصحف القديمة أو الموز.. فهذا كل ما يحتاجه المرء للمرور بسلام من أي نقطة تفتيش عراقية بكل سهولة ويسر آنذاك.

غير أن الموز والصحف لم تكن متوفرة مثل السجائر في الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي، والفتى كانت تتوفر لديه السجائر دائما، لا يذكر جيدا مصدرها، لكنها كانت متوفرة على أي حال.

يذكر الفتى أيضا أن خاله خرج صباح أحد الأيام لتفقد حلاله في صحراء شمال الكويت على طريق العبدلي، وتأخر كثيرا حتى العصر، فتوجه الفتى بصحبة ابن خاله إلى المكان، ويا لهول المشهد، إذ صدمهم كثافة السيارات المتشابكة عند نقطة "المطلاع"، آلاف السيارات المتجهة من الكويت إلى العراق، على كلا جانبي الطريق، بل وحتى في المساحة الرملية بين طريق الذهاب والعودة، آلاف السيارات المكتظة ذهابا. نزل الفتى ومشى مسافة طويلة بين السيارات حتى وصل للجهة المقابلة، وإذا بنفس المشهد، آلاف السيارات القادمة من العراق تشغل كل شبر من كلا الطريقين، ذهابا وإيابا. آلاف السيارات القادمة والعالقة بلا أي فرصة للخروج.

استمر ذلك الموقف حتى جاءت فرق عسكرية كثيرة، وانتشر الجنود في المكان، وأجبروا السيارات من أطراف كل جانب على العودة لفك الاشتباك. وظل الفتى يبحث عن خاله بين آلاف الحشود حتى وقت متأخر من الليل،

فعثر على خاله وتأكد من سلامته وطلب منه العودة وطمأنة الأهل، حيث أن الاشتباك على وشك أن ينتهي ويعود مباشرة.

عاد الفتى وابن خاله لسيارته، فإذا بمجموعة من النساء العراقيات يقتحمن عليهم السيارة ويصعدن عنوة، ويطلبن منه توصيلهن إلى "الكويت" !

طلب منهن النزول لكن دون فائدة، هددهن بعصا وب "الليور" (قطعة الحديد التي تستخدم لفك براغي إطارات السيارة) لكنهن كن يضحكن ولا يبالين. ولا عجب، فهن معتادات على الكلاشنكوف و آر بي جي وقذائف الهاون وراجمات الصواريخ ومضادات الطائرات .. هل ستخيفهن عصا بيد فتى كويتي !

لم يتمكن صاحبنا من الخلاص من هذه الورطة إلا باستدعاء بعض الجنود العراقيين، الذين نهروا النسوة بكلام قاسي وبذيئ، وأجبروهن على النزول. وعلينا أن لا ننسى أن العراق بلد عشائري تسود فيه قيم البداوة والعروبة الأصيلة، وأنهم في الأحوال العادية من خيرة الناس وأكرمهم خلقا وشهامة. لكن حالهم كحال أي شعب آخر، عندما يتسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم ولا يرحمهم، يحول حياتهم لجحيم لا يطاق، وينفذ فيهم أبشع أساليب العنف والتعذيب وقهر الرجال، ويجبرهم على التحول عن أصالتهم ونبلهم وكريم أخلاقهم، ويحيلهم إلى أدوات قتل تنفذ رغباته وجنونه. وهذا ليس حكرا على العراق وشعبه، بل حصل مع كل الشعوب التي حكمت بالنار والحديد، الألمان والفرنسيين والانجليز واليابانيين والصينيين والامريكان وغيرهم. انها الحرب، التي تقتل قيم الإنسانية وتزرع محلها التوحش والهدم والفساد.

## ضاقت الدائرة

استمرت الأحوال بالضيق والضنك الذي يتزايد كل يوم، مواقف الخوف ومواجهة الموت كل لحظة ولأتفه الأسباب كانت رفيقا دائما لصاحبنا. يذكر ذات مرة كان عائدا من المخبز الآلي إلى بيت والده، كان مثل هذا المشوار البسيط يتطلب الذهاب في الساعة الخامسة فجرا، والوقوف في الطابور الممتد بالتفاف عبر الساحة إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أحيانا. إذ لم يكن الخبز متوفرا باستمرار، وإنما على دفعات، ولم يكن يسمح بأكثر من كيس واحد لكل شخص، فكان صاحبنا يعيد الوقوف بالطابور عدة مرات ليحظى بأكثر من كيس واحد.

في إحدى هذه المرات، كان الفتى عائدا من المخبز حوالي الساعة العاشرة صباحا، وإذا بمجموعة من السيارات العسكرية تسد الطريق، ترافقها سيارات مدنية تابعة للتلفزيون العراقي، نزل منها ذلك المذيع اللعين .. "ها خوتي ها"، ومعه بعض المصورين والفنيين يحملون كاميرات وأجهزة متنوعة، يحيط بهم عشرات الضباط والجنود ممن طوقوا المكان بسرعة، وأوقفوا حركة المرور وأجبروا الناس على النزول من سياراتهم، وقاموا بتوزيع صور صدام حسين عليهم، وأخذوا ينظمونهم على شكل مظاهرة شعبية مؤيدة للنظام وللقائد أمام عدسات الكاميرات !

ما هذه الورطة العويصة، كيف يتخلص الفتى من هذا المأزق، إذ من سيرحمه لو ظهر في التلفزيون وهو يهتف لمن احتل بلده وقتل خاله وشرد أهله ؟!

خلال لحظات وجد الفتى نفسه وقد فُتح باب سيارته، وامتدت يد غليظة لجندي ضخم من الحرس الجمهوري، لو ضرب الفتى لهرس أضلاعه بضربة واحدة، على كتفه رشاش كلاشينكوف، وصاحبنا أصبح يميز بينهم من الشريط بمثلث أحمر على أكتافهم أو شريط أسود أو علامات أخرى لم يعد يتبينها الآن، لكن وقتها كان يعرف كيف يميز بين الحرس الجمهوري والجيش العادي وبين منتسبي حزب البعث من تلك العلامات. فكان مثلا يشاهد أحيانا ضابطا برتبة كبيرة يؤدي التحية العسكرية ويتحدث بعبودية لضابط صغير لأن الأخير "بعثي" ينتمي للحزب وولائه للحزب وللقائد. فالحزبي أعلى شأنا وأهمية ومكانة من غير الحزبي، هكذا زرع صدام ورفاقه نظام الولاءات الجديد، فالولاء له وللحزب أهم وأكبر من الولاء للوطن !

المهم.. مد الجندي الضخم يده وأمسك صاحبنا من كتفه وسحبه بقوة من سيارته وجره جرا إلى التجمع، وصاح بزميله : انطيه صورة (أعطه صورة)، وصرخ بالفتى : أوقف هنا.. ثم صرخ أحد الضباط بالتجمع، شششششششش .. اسمعوا، أريدكم تسمعون كلام الأستاذ، وشما يقولكم تسوون .. زين ؟ سوو اللي يقولكم عليه عدل حتى تمشون بسرعة .. مفهوم ؟

شعر الفتى باقتراب الموت وهو يحاول اخفاء نفسه بين الجموع كي لا يظهر بالتلفزيون، وصارع نفسه للحظات قاتلة وهو يفكر فيما يفعل كي يتخلص من هذه الورطة، وسيطرت عليه فكرة الهروب مع ادراكه أن أي جندي إذا لاحظ هروبه سيرديه قتيلا برصاصة تافهة.

تفحص الفتى المكان بحثا عن مهرب، وأخفى وجهه خلف الصورة وانسحب قليلا للوراء، وفي لحظة انشغال الجنود بالتصوير وتنظيم الحشد، وجد طريقه إلى سيارته، ركبها وتحرك ببطء.. ثم وقعت عيناه على جندي صغير في آخر التجمع، نظر إليه في بؤس وهلع ورجاء، فابتسم له الجندي بعطف وأشار بإصبعه على فمه أن .. شششششش ثم حرك يده في إشارة إلى أن انطلق بهدوء، فانطلق صاحبنا بهدوء وحذر واتخذ طريقا جانبيا وهرب حتى كأن الريح تحمله حملا وتطير به .

***

يذكر الفتى أيضا أنه ذات مرة طلب منه خاله أن يملأ سيارته بالوقود، فأخذها وذهب، وكالعادة مر على إحدى السيطرات المنتشرة في الشوارع، فأوقفه أحد الجنود وطلب منه دفتر السيارة، فتش الفتى عن الدفتر في درج السيارة ولم يجده، بحث هنا وهناك ولم يجد شيئا، تململ الجندي وصاح به : هاي شبيك، وين الدفتر بسرعة ؟

تلعثم الفتى واضطرب.. وقال للجندي بأن السيارة تخص خاله ولا يدري أين الدفتر. ضحك الجندي ضحكة صفراء ساخرة وقال : دا انزل بوية انزل انزل .. كلاواتكم هاي عارفينها.

أقسم الفتى أن السيارة تخص خاله وأنه ذاهب لملئها بالوقود..

لكن الجندي ظل يسخر من الفتى ويقول له ان السيارة مسروقة !

أقتيد الفتى للمدرسة أمام السيطرة، وكانت مركز قيادة مثل معظم المدارس التي احتلها الجنود وأقاموا فيها.

أُدخل الفتى على آمر الوحدة التي تتبع لها السيطرة، وإذا بضابط برتبة كبيرة يجلس في مكتب مدير المدرسة، يدخن ويشرب السجائر ويضحك مع بعض الجنود المتواجدين معه.

دخل الجندي وهو ممسك بالفتى وأدى التحية العسكرية وقال للضابط: سيدي هذا لزمناه بايق سيارة سيدي.

صرخ الفتى مسرعا، لاا أقسم بالله انها سيارة خالي، ولم أسرقها يا "أستاذ" (هول الموقف وحضور المكان في الذاكرة لعثم الفتى وجعله يتخيل الضابط ناظر المدرسة !) .. ضحك الضابط والجنود على كلمة "استاذ".. واستغل الفتى الموقف وراح يقسم أنه لم يسرق السيارة، وقال للضابط : أرجوك تعال انظر للسيارة، انها قديمة ومهترئة، الناس يسرقون ميرسيدس وموستانغ (كانت موضة آنذاك)، فهل تصدق أنني أسرق هذه السيارة "الكحيانة" ؟!

ضحك الضابط وقال للجندي.. ده عوفه عوفه.. خطية مبين وليد أوادم ما يسويها .

عاد الفتى مصفر الوجه دون أن يملأ السيارة بالوقود، فقال له خاله لماذا لم تملأها ؟ حكى له ما حدث، فضحك خاله وقال له : نسيت أن أبلغك أنني مزقت دفتر السيارة لأنه كان مكتوب فيه في خانة المهنة "عسكري".

كانت هذه بذاتها تهمة تكفي للاعتقال لا شك، ولذلك لم يكن أحد يجرؤ على اظهار أي علامة من علامات الانتماء للجيش.

## يوم لا ينسى

كانت الأيام تسير ببطئ شديد وسط مواقف الخوف ومواجهة الموت بشكل يومي، الأخبار من الخارج شحيحة، وجيش الاحتلال العراقي يسير باتجاه ترسيخ الاحتلال وجعله أمرا واقعا على الجميع قبوله. أصبحت المحلات لا تقبل العملة الكويتية بعد أن سمح بتداولها في الأيام الأولى، شرط احتسابها وكأنها دينار عراقي، الدينار بدينار وليس بمئة فلس. لوحات السيارات تم تغييرها وأصبحت تحمل اسم العراق/ محافظة الكويت. الشوارع والمناطق والمؤسسات هي الأخرى طالها التغيير، واستبدلت أسماء شخصيات الكويت وشيوخها، بأسماء صدام حسين.. القائد الأوحد الذي اجتاحت صوره كل شارع وكل بناية وكل زاوية من زوايا الكويت !

السلع بدأت تنفذ من كل مكان، باستثناء بعض الأساسيات البسيطة بعد فراغ جميع المخازن. وأصبحت السلع المعهودة كالشوكولاتة والرز البسمتي ضربا من الخيال. بلد محتل يستهلك كل ما فيه من مخزون دون استيراد، كيف سيكون حاله ؟ هذا ما كان عليه الوضع بعد أسابيع من الاحتلال العراقي للكويت.

انتشرت الأسواق السوداء، والأسواق الشعبية في الساحات والأرصفة. وامتلأت بالمسروقات والممتلكات الخاصة، ففي ظل هذه الظروف القاسية، يُجبر الناس على بيع ممتلكاتهم وحتى ملابسهم من أجل توفير ما يسد الجوع ويحفظ الأنفس من الموت.. فلا عمل ولا راتب ولا أي مصدر للدخل في بلد محتل.

كانت حكومة الكويت قد اضطرت للانسحاب إلى المملكة العربية السعودية في اليوم الأول للاحتلال، وأعيد تشكيلها في مدينة الطائف، ومن هناك أدارت شئون أهل الكويت في مختلف دول العالم، في سابقة لم يعرف مثلها التاريخ، فكانت المخصصات المالية تصل للكويتيين أينما كانوا في أي بلد. بل وكانت الأموال تصل للكويتيين داخل الكويت لاحقا عبر رجال شجعان كانوا يخاطرون بحياتهم للدخول إلى الكويت عبر الحدود البرية من السعودية وتسليم أهلها الأموال. يذكر فيما يذكر الفتى أن جارهم السيد "مفرج الخليفة الشمري" كان ممن تصلهم الأموال من الحكومة الكويتية في السعودية ويقوم بتوزيعها سرا على أهل الجهراء، ومنهم والد الفتى وأعمامه.

أصبحت الحياة قاسية جدا بعد مرور أكثر من شهر على الاحتلال، خاصة مع دخول ما يسمى ب "الجيش الشعبي" العراقي، وهو جيش غير نظامي أغلبه من السوقة والرعاع، انتشروا في كل مكان بحجة حفظ الأمن، في حين أنهم لم يكونوا أكثر من لصوص ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم، حتى مما في أيدي الناس. فانتشرت السرقات والاستيلاء على الممتلكات بالقوة وتحت تهديد السلاح، وكثرت حوادث القتل والبطش والاعتقال ضد كل من يقاوم سرقة ممتلكاته، تحت أتفه الذرائع الكاذبة .. مثل سب الرئيس أو الاعتراض على الاحتلال أو تسمية الكويت بغير التسمية التي اعتمدها النظام المحتل في بغداد، وهي "المحافظة التاسعة عشرة للعراق" !

وفي يوم عجيب من بين تلك الأيام السوداء.. ذهب الفتى إلى محطة البنزين ليملأ سيارته بالوقود، كان الوقت عصرا على ما يذكر، وفي طريق عودته إلى المنزل، لمح تجمعا صغيرا على أحد المطاعم الموجودة في شارع

تسوق مهجور منذ الأيام الأولى للاحتلال. ما الذي يجري؟! تسائل الفتى..

ثم قرر التوجه إلى المكان واستكشاف الأمر بنفسه، خاصة وأن أغلب الموجودين يظهر من ملابسهم أنهم كويتيون.

وصل صاحبنا للمطعم، ويا لهول المفاجأة. كان ذلك في أول أيام شهر نوفمبر / تشرين الثاني. أي بعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر على الاحتلال، وافراغ البلد من كل ما فيها، حتى الخبز أصبح أسمرا صلبا نصفه نخالة وشعير.

نزل الفتى من سيارته واقترب من الجمع، فإذا بالمطعم مفتوح وبداخله ثلاثة شبان فلسطينيين، يعرف أحدهم كان زميله في المدرسة الثانوية. وإذا بالشبان الفلسطينيين يعملون بسرعة، أحدهم كان يعجن اللحم المفروم بالملح والكرفس والتوابل، والآخر يشعل الفحم، والثالث يتلقى الطلبات من الحشد الواقف على الشباك. أهذا حلم أم حقيقة ؟ صرخ الفتى في داخله مذهولا. أهذا كباب حقيقي ؟ رحماك يا رب..

نادى الفتى صاحبه الفلسطيني من خلف الشباك المكتظ بالناس : إياد .. إياد ؟

هلا هلا محمد .. كيفك ؟ دقيقة وأجيك، شو بدك قول لي ؟!

أخرج الفتى .. لا يذكر كم من المال من جيبه، عشرات الدنانير، وأعطاها لصاحبه إياد.. وانتظر صحن الكباب وكأنه عاشق ينتظر معشوقته، ويا لتلك الرائحة التي لم يعرف أجمل منها في حياته، لا قبلها ولا بعدها. طبق كباب حقيقي في أحد أشد الأيام البائسة من أيام الاحتلال البغيض. لم يسأل كيف،

ولم يعرف حتى اليوم ما الذي حصل، ومن أين حصل إياد ورفاقه على هذه الفرصة وهذا اللحم المفروم والتوابل الرائعة بعد فراغ البلد من كل شيء .. لم يسأل ولم يهتم سوى بذلك الطبق الشهي، الطبق الحقيقي من الكباب المشوي بعد طول معاناة، وأصبح ذلك اليوم - الذي لم يتكرر بعدها أبدا - يوما لا ينسى من ذاكرة صاحبنا حتى اليوم.

***

## الخروج من الكويت

أصبحت الأخبار التي تصل عبر الإذاعات غير العراقية تتحدث يوميا عن الاستعدادات للحرب القادمة، والناس لا يغادر آذانهم تلك الأصوات التي تنقل لهم أخبار الكويت وما يتعلق بالاحتلال العراقي لها، معلقون بالأمل والرجاء، وأصبح الجميع خبراء حرب وأسلحة وقرارات مجلس الأمن، بدء بالقرار 660 الشهير والذي صدر في 2 أغسطس 1990 ويدعو العراق للخروج من الكويت مباشرة ودون شروط، والقرار 662 الذي صدر في 9 أغسطس 1990 واعتبر قرار ضم الكويت للعراق باطلا وليس له أي صلاحية قانونية، والقرار الأهم والذي لن ينساه الكويتيون أبدا وهو القرار 678 والذي صدر بتاريخ 29 نوفمبر 1990 والذي وضع العراق تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة وسمح بموجبه باستخدام القوة لاخراج القوات العراقية من الكويت.

التلفزيون العراقي كان في عالم آخر حينها، كان يؤدي دوره المعهود في التعبئة العامة ونشر الأكاذيب وإيهام الناس بأن كل الأمور تحت سيطرة القائد الأوحد. وليقنعوا الشعب المسكين بأكاذيبهم، كانوا يظهرون جنودهم "البواسل" وهم يصطادون سمك الزبيدي* "بالصنارة" على سواحل الخليج العربي!

***

أصبحت الحياة أكثر قساوة، خاصة مع تزايد حدة عمليات المقاومة الكويتية هنا وهناك، والتي جعلت جنود الاحتلال العراقيين يتشددون أكثر عند

* الزبيدي سمك يتواجد في عمق الخليج العربي

نقاط السيطرة وحملات التفتيش والمداهمات على المنازل، ومنذ صدور قرار وضع العراق تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة (القرار 678)، وإعطائه مهلة نهائية للخروج من الكويت قبل 15 يناير 1991، أصبح الحديث الأهم هو حديث الحرب، حرب تحرير الكويت. إذ كانت تصل أيضا أخبار استعدادات جيش التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، ووصول جيوش هذا التحالف إلى المملكة العربية السعودية، وأخبار المناورات والأسلحة الضخمة التي ستجبر جيش الاحتلال العراقي على الانسحاب بالقوة من الكويت، حتى أصبح الأطفال في الكويت يعرفون ويتحدثون عن طائرة "بي 52" الضخمة، وطائرات الشبح، التي سيسقطها "منقاش"* الراعي ببندقيته "البرنو" العتيقة !

في هذه الأيام.. كان للإشاعات نصيب كبير بطبيعة الحال، ومما انتشر في تلك الأيام، حديث عن عثور جيش الاحتلال العراقي على سجلات الخدمة العسكرية الاجبارية للكويتيين، وأن العراقيين أصبح لديهم عناوين كل المجندين أو المطلوبين للخدمة العسكرية الالزامية. وقد كان القانون في الكويت قبل الاحتلال العراقي ينص على أن كل شاب كويتي أتم الثامنة عشرة من عمره، يجب عليه أن يتقدم لتسجيل نفسه للخدمة العسكرية الالزامية، وفي حال كان طالبا في المدرسة أو الجامعة، يمنح تأجيلا دراسيا يتجدد كل عام طالما أثبت استمراره بالدراسة.

كان الفتى قد أتم الثامنة عشرة من عمره، وقيد نفسه في سجلات

* كان التلفزيون العراقي آنذاك يعرض لقاء مع راعي أغنام بسيط يدعي أنه أسقط طائرة "أباتشي" المضادة للرصاص ببندقيته المهترئة !

"التجنيد الالزامي"، ولكونه لا يزال طالبا، حصل على تأجيل دراسي لمدة عام واحد. كذلك كان شقيقه الأكبر "خالد" والذي كان طالبا في كلية الطب بجامعة الكويت.

كثر الحديث والاشاعات عن اعتقال المجندين بعد حصول العراقيين على سجلات التجنيد الالزامي، وانتشر الذعر والخوف بين الأهالي على أبنائهم، خاصة أن العراق آنذاك اعتبر الكويت "المحافظة التاسعة عشرة"، والشعب الكويتي مواطنين عراقيين بالتبعية، وبالتالي يجري عليهم ما يجري على كل مواطن عراقي. هذا يعني باختصار شديد، أن كل شاب كويتي ممن أتم الثامنة عشرة من عمره، أصبح مطلوبا للخدمة العسكرية الالزامية في الجيش العراقي.. في وقت تقرع فيه طبول حرب يستعد لها جيوش 32 دولة، لكم أن تتخيلوا مشاعر الآباء والأمهات في تلك الفترة !

يذكر الفتى ذات مرة، كان جالسا مع والده وأعمامه في "ديوانية" (مجلس مخصص للرجال) أحد أعمامه، وكان أحد الحضور من جيرانهم يقول للموجودين : وصلت إلي معلومات مؤكدة أن العراقيين حصلوا على سجلات التجنيد الالزامي للكويتيين، وأنهم بدأوا بملاحقة شباب الكويت المسجلين فيها، وسوف يشركونهم في الحرب، بل سيجعلونهم في الصفوف الأمامية ويجبرونهم على تلقي الضربات الأولى، ويستخدمونهم لتمشيط المناطق المزروعة بالألغام !

خيم الخوف والهلع على الحاضرين، وبدأ والده التفكير جديا بإجبار الفتى وشقيقه الأكبر على الخروج من الكويت، وهو الذي كان رافضا منذ البداية فكرة الخروج. حاول الفتى التملص من هذا القرار، وحاول بكل ما

يستطيع أن يقنع والده أن تلك مجرد إشاعات وأمور غير معقولة، وأنه على كل حال أصبح منذ بداية الاحتلال يقيم في منزل خاله الأكبر ولن يعثر العراقيون عليه أبدا.. إلا أن والده أصر على خروجه هو وشقيقه خالد.. ومن يلوم أب على خوفه على أبنائه ؟!

***

إنه الخروج من الكويت إذن.. لا مفر !

عزم الشابان على الخروج من بلادهما الرازح تحت نير الاحتلال العراقي الوحشي، وأخذا بالتحضير لهذه المهمة العسيرة آنذاك، وسط آمال بالفرج وانتهاء المحنة والعودة قريبا.

كانوا يعرفون في تلك الفترة ما يتطلبه الخروج من الكويت، فقد سمح جيش الاحتلال العراقي لفئات معينة من كبار السن والأطفال والمرضى بالخروج. وكانت أخبار بعض الشباب الذين استطاعوا الخروج عن طريق رشوة الجنود المنتشرين في نقاط السيطرة في الطريق الممتد من الكويت إلى السعودية يتداولها الجميع، فالكل أصبحت لديه خبرة كافية في التعامل مع جنود جيش الاحتلال العراقي، المنهكين من الحروب والفقر والحياة البائسة التي فرضها عليهم هؤلاء البعثيون المجانين، خاصة بعد أن شاهدوا بأنفسهم الفرق الشاسع بين حياتهم وحياة الكويتيين المترفة والجميلة.

أخذ الشابان ما تيسر لهما من المتاع البسيط، والكثير مما يمكن تقديمه كرشوة للجنود العراقيين في نقاط التفتيش. ولا يزال يذكر جيدا ذلك اليوم،

بكاء والدته ودموع والده التي كان يحاول أن يخفيها ويتظاهر بالصلابة ورباطة الجأش أمام أبنائه. انه فراق من نوع آخر، لم يألفوه من قبل، وسط ظروف غير طبيعية، تقرع فيها أجراس الخطر وطبول حرب شاملة، لا يعرف ما الذي قدّر لهم بعدها، عودة ولقاء، أم دمار وتشتت .. !

خرج الفتى مع شقيقه وزوجة شقيقه وطفلهما الذي لم يتجاوز بضعة أشهر من عمره، كان الوقت فجرا لم تبزغ شمسه بعد. انطلقا بسيارة شقيقه خالد باتجاه السعودية عبر طريق "النويصيب" جنوب البلاد، ويا لها من ساعات مليئة بالرعب مما تحمله هذه الرحلة من مخاطر، سيجبرون فيها على التعامل مع جنود مدججون بالسلاح ولا يحكمهم قانون، معبئون نفسيا لأشهر على كراهية الكويتيين، بادعاءات باطلة أنهم سرقوا نفط العراق وتسببوا بانهيار عملته وأنهم أسائوا لشرف "الماجدات" العراقيات .. وغيرها من الأباطيل وما أكثرها. فليس أمامهم إلا الدعاء والتضرع الله عز وجل أن ييسر خروجهم، ويهيء لهم من الشرفاء الذين يتحلون بالحد الأدنى من القيم الأخلاقية والإنسانية، والحق أن فيهم الكثير من الشرفاء الذين كانوا لا يتجاوزون حدودهم ولا يظلمون وممن بدا عليهم علامات عدم الرضا عما يجري، وأنهم مكرهون على ما يفعلون، خاصة من أبناء العشائر الأصيلة التي تحمل قيم العروبة والشهامة وتعرف لها قدرها، وفي الناس خير دائما، ولا يخلو أي مجتمع من الصالح والطالح، ووثائق الحرب العالمية الثانية مثلا تظهر بوضوح قيام كثير من الجنود والمدنيين الألمان بمساعدة الكثير من اليهود الهاربين، بإيوائهم ورعايتهم وتهريبهم إلى أماكن أكثر أمنا خارج ألمانيا، رغم المخاطر التي تهدد حياتهم لو أكتشف أمرهم ..

عبر الشقيقان مجموعة من نقاط التفتيش العسكرية بسلام في طريقهم إلى الحدود الجنوبية مع المملكة العربية السعودية، بالإستعطاف تارة وباختلاق الأعذار تارة أخرى، خاصة مع وجود امرأة وطفل رضيع. لكن الأصعب لم يأت بعد، إذ يعرف الشقيقان أن السيطرات الخارجية أكثر شراسة من السيطرات في المناطق الداخلية. تجاوز الشابان بضعة نقاط أخرى أكثر صعوبة على "طريق الأحمدي"* إلى أن وصلا النقطة الحاسمة، أو هكذا اعتقدا، وهي نقطة التفتيش المتمركزة في مبنى المطافي على طريق السفر السريع، والذي يبعد حوالي 40 كيلومتر عن مركز النويصيب الحدودي مع السعودية. كان أكبر نقاط التفتيش عددا وعدة، وأكثر المراكز صعوبة في التعامل، وكان طابور السيارات يمتد لأكثر من 5 كيلومتر تقريبا، استغرقت الكثير من الوقت حتى بلوغ النقطة، قضوها في توتر وخوف من المصير المجهول، خاصة وهم يشاهدون الكثير من السيارات تعود أدراجها بعد عمليات تفتيش ومعاملة قاسية من قبل جنود الاحتلال.

كان الفتى قد أحضر معه، ودون أن يخبر أحدا، دفتر التجنيد الالزامي الخاص به، فقد بيّت النية على الالتحاق بالجيش الكويتي المتواجد في المملكة العربية السعودية بعد تمكنهم من الخروج، معتقدا أن أخاه سيعيش مع زوجته وابنه، وربما يكمل دراسته هناك، أما هو فإنه وحيد لا يعرف أحدا، ولا يعرفه أحد، وليس أفضل من التطوع في الجيش للدفاع عن بلده. هكذا خطط صاحبنا دون أن يبوح لأحد بأي شيء، ولذلك أخفى دفتر التجنيد في أحد أبواب السيارة. فتح الجزء البلاستيكي المثبت على باب السيارة، وأخفى الدفتر جيدا بإلصاقه بالقرب من ماكينة فتح وغلق زجاج نافذة الباب.

---

* طريق 40، والذي سمي بعد التحرير طريق الملك فهد بن عبدالعزيز، عرفانا بدوره الكبير في تحرير الكويت

مثل كل الشعوب التي تعرضت للاحتلال أو الحصار لفترة طويلة، اكتسب الفتى الكثير من المهارات والخبرات في التعامل مع واقع الاحتلال وجيشه، مهارات التخفي والتملص من نقاط التفتيش واختلاق القصص والأعذار التي يمكن أن تنطلي على الجنود المرابطين في السيطرات. ومن تلك الخبرات ما تعلمه من "تزوير" بطاقات هوية شخصية بالتعاون مع مجموعة من رفاقه. ولا يزال يذكر تلك الليلة التي سطوا فيها على إحدى المدارس القريبة من منزل خاله، وسرقوا منها مجموعة من الأختام والأحبار والبطاقات الفارغة، في مغامرة لا ينساها كادت تودي بحياتهم جميعا، لكنها كانت مغامرة مستحقة، حيث مكنتهم من تزوير مجموعة من البطاقات لعدد من العسكريين الكويتيين ليتمكنوا من الخروج من منازلهم وقضاء حوائجهم بسلام ودون أن يُعتقلوا. ولا يزال الفتى يذكر كيف كانوا يستخدمون البيضة المسلوقة لنقل الختم من بطاقة حقيقية إلى البطاقة المزورة دون فائدة قبل حصولهم على أختام وزارة التربية من تلك المدرسة.

اقترب الفتى وأخاه إلى نقطة التفتيش بعد طول انتظار مرهق يتلف الأعصاب، أصبحوا يشاهدون عن قرب كل ما يجري لمن قبلهم، ويحاولون بسرعة التعرف على مزاج الجنود المسئولين لتحديد الطريقة المناسبة للحديث معهم، وأي الأعذار ينبغي أن يستخدموا لاقناعهم. فالجنود بشر في نهاية المطاف، منهم اللئيم ومنهم اليائس ومنهم من يستمتع بالعنف وإذلال الآخرين، ومنهم من يخاف الله أو يستحي..

أصبح الوقت يمر بسرعة مع اقتراب الأخوين لنقطة التفتيش، والفتى يراقب ويبحث في الوجوه، والحق أنه كان يبحث عن جنود من أهل العشائر البدوية تحديدا، إذ كان يعرف كيف يتعامل معهم باستحضار قيم البداوة العربية الأصيلة، خاصة بوجود إمرأة، وقد سبق وأن استخدم هذا الأسلوب عشرات المرات معهم من قبل. وليس في هذا أي عيب، فالبدوي - كما يقول عالم الاجتماع العراقي الكبير د. علي الوردي - يحب سمعته ويبذل من أجلها حياته، ولذلك يقف عند كل ما يهدد تلك السمعة بسوء.

أخيرا.. وصل الشقيقان نقطة السيطرة، ومد الجندي يده طالبا الأوراق الثبوتية الخاصة بهم. كان فظا غليظا بدى عليه الملل من تكرار نفس الأسئلة وسماع نفس الأعذار منذ ساعات الفجر، يدخن بشراهة وينفث الدخان بقرف وكأنه يريد أن ينفث الحياة بأكملها.

- وين رايحين ؟ سأل الجندي

- إلى السعودية.. أجاب شقيقه خالد

- لويش طالعين ؟ قال الجندي بامتعاظ

- أنا طالب في الجامعة وأهلي كانوا في السعودية قبل "الأحداث" .. قال خالد

- والعراق ما بيها جامعات بوية ؟ رد الجندي بسخرية واستخفاف ..

ثم قال وهو يوجه السؤال للفتى : وانت .. شقد عمرك ؟

- قال الفتى : 17 سنة ..

- سأل الجندي : تدرس بعد ؟

- قال الفتى نعم : وأخرج بطاقة طالب مدرسة، كان قد زورها من قبل.

نظر الجندي للسيارة وتفحص من فيها ثم قال .. ارجعوا، ممنوع تطلعون !

سخّر الله للفتى أن عاجل الجندي بالقول .. دقيقة، ثم أخرج من جيبه حفنة من الأوراق النقدية العراقية، لا يذكر كم قيمتها، ولكنها كانت كل ما يملك. قدمها للجندي وقال : هاك ..

- شقد ذنّي ؟ سأل الجندي بعصبية وهو يتلفت يمينا ويسارا ..

- لا أعرف، رد الفتى .. ولكن هذا كل ما عندي.

أخرج شقيقه خالد أيضا ما عنده من مال وأعطاه للجندي، وبدأ الجميع يتوسل ويقدم كل ما يمكن تقديمه كرشوة لهذا الجندي اللعين.

قدموا له المال والطعام والسجائر، ومع بكاء الرضيع وتوسلات الجميع.. ضرب الجندي على سقف السيارة وقال وعلامات الغضب وعدم الرضا على وجهه : هذا مو كافي، بس ياالله طوفوا، علشان "الوليد الزغيرون" بس (الطفل الصغير)..

تنفس القوم الصعداء، وشعروا كأن حياة جديدة قد كتبت لهم. وانطلقوا بكثير من الحذر، وكثير من الخوف يتجاوزون العقبات والأسلاك الشائكة والمتاريس الموضوعة بشكل متداخل، ثم عبروا نقطة التفتيش واستمروا في طريقهم إلى مركز النويصيب. كانوا يظنون أنهم أنجزوا المهمة بنجاح، وأن كل شيء انتهى الآن، ولم يبق إلا مسافة صغيرة يقطعونها إلى منطقة الأمان.. لكن !

لم تمض سوى دقائق معدودة، حتى فاجأتهم سيطرة أخرى في وسط الطريق، لكنها كانت صغيرة، سيارة جيب عسكرية وبضعة براميل موضوعة لسد الطريق، وأربعة جنود لا أكثر. تراجعت الآمال وعاد الخوف من جديد.

ترى، كيف سيتصرفون مع هؤلاء الجنود البائسين، وقد أعطوا كل ما يملكون للجندي اللعين في السيطرة السابقة، ولم يعد لديهم ما يقدمونه لرشوة هؤلاء الجنود ؟!

تقدم الجندي نحو السائق وعيونه تتفحص السيارة من كل جانب وقال : وين رايحين ؟

( وكأن الأمر غير واضح، إلى سويسرا يعني ؟! قال الفتى بصوت خافت بامتعاظ )

- إلى السعودية .. أهلنا هناك وقد شرحنا الأمر للضابط في المركز وسمح لنا .. أجاب خالد

- أهاااا .. رد الجندي، زين ما عدكم چقاير ؟

- لم يبق معنا شيء .. الضابط أخذ كل شيء !

ضرب الجندي على سقف السيارة وقال بقرف .. يالله طوفوا طوفوا .. بسرعة.

أوووف.. تنفس الجميع الصعداء من جديد، لكن مع حذر وترقب هذه المرة، إذ تبين لهم أن الأمر لن ينتهي سريعا على ما يبدو، وأن الطريق لا يزال يحمل الكثير من المفاجئات.

تقدمت السيارة أكثر باتجاه الحدود البرية مع السعودية، وسط وجوم وترقب.. وإذا بنقطة تفتيش أخرى على غرار سابقتها. سيارة عسكرية صغيرة وبضع جنود وبراميل تسد الطريق.

تكرر المشهد.. نفس الأسئلة ونفس الردود .. وأكمل المسافرون طريقهم. أصبحوا يشاهدون مركز النويصيب على مد البصر، وإذا بسيطرة عليها

جنـدي عـراقي واحـد، بـلا سـيارة ولا ثكنـة ولا أي شـيء.. رجـل كبـير بالسـن شـاحب الوجـه، لـو جمعـت بـؤس الدنيـا كلـه وأحزانهـا لـكان لذلـك البائـس نصفـه، ولبقيـة البـشر النصـف !

كان يجلـس عـلى كـرسي مـن الحديـد الصدئ، ويضـع بندقيته تحـت الكرسـي، باستسـلام تـام وشـعور كامـل بالتعاسـة عـلى هذا "الحـظ العاثر".

نظـر للسـيارة ومـن فيهـا نظـرة البائـس الحزيـن.. وكأنـه يسـتعطف القـوم أن لا ينسـوه ممـا تجـود بـه أيديهـم، أن يعطـوه أي شـيء، لأنـه عـلى مـا يبـدو لـن يذكـره أحـد مـن رفاقـه ولـن تصلـه أي امـدادات في هـذه البقعـة النائيـة، المتاخمـة لمركـز الحـدود البريـة مـع السـعودية.

- الله يساعدك .. سلّم الفتى على الجندي البائس
- هلـو هلـو عينـي .. الله يسـاعدكم أغـاتي .. تفضلـوا .. تفضلـوا. ردد الجنـدي وهـو يشـير لهـم أن واصلـوا طريقكم.

فـي هـذه الأثنـاء، وإذا بسـيارة عسـكرية مـن حـرس الحـدود السـعودي تتجـه للجنـدي، توقـف خالـد وراحـوا ينظـرون مـا الـذي يجـري وهـم يتسـائلون .. هـل سـيأسرونه؟ أم يقتلـون هـذا البائـس المنـسي في الصحـراء؟!

وإذا بالجنـود السـعوديين ينزلـون مـن سـيارتهم، وهـم يحملـون الطعـام والمـاء والسجائـر لذلـك الجنـدي العـراقي المسـكين، ويسـلمون عليه وكأنهـم يعرفونـه.. سـألوا عـن حالـه ومـا إذا كان يريـد أي شـيء .. فـكان يقبلهـم ويشـكرهم ويدعـوا الله لهـم بالخـير والسـلامة.

تبين للفتى أن الجنود السعوديين أدركوا بؤس هذا الجندي، وأنه بات منسيا لا يذكره رفاقه ولا يحضر إليه أحد لتقديم الامدادات. فكانوا يحرصون على رعايته ومساعدته.. وما ذلك بغريب على أبناء هذا البلد الكريم.

***

وصل الفتى وشقيقه وزوجة شقيقه ورضيعهما إلى مركز النويصيب الحدودي التابع للكويت، والذي لم يكن فيه شيء يذكر. ثم تجاوزوا إلى مركز الخفجي الحدودي التابع للسعودية، وهناك بدأ فصلا جديدا في هذه الرحلة المليئة بالتعب والخوف والأحزان. فليس أصعب من فراق الأهل إلا فراق أجبروا عليه، وتركوا خلفهم بلدا مدمرا يترقب حربا شاملة لا يعلم مداها وخطورتها إلا الله سبحانه.

كان المركز مكتظا بالسيارات الكويتية، مئات الأسر والأفراد، منهم من خرج كصاحبنا وشقيقه مؤخرا، ومنهم من ينتظر منذ أيام، في خيام نصبت لهم على جانب المركز لحين الانتهاء من إجراءات السماح لهم بالدخول. قد يظن البعض أن المسألة بسيطة، لكنها أبدا ليست كذلك.

العراقيون كانوا يحرصون في نقاط التفتيش، وخاصة النقطة الأساسية المتمركزة في مبنى المطافي، على أخذ جميع الأوراق الثبوتية من الكويتيين الخارجين، إضافة إلى أخذ المال والطعام والسجائر بالتأكيد.

هدفهم من ذلك، كما تبين للفتى لاحقا، هو إغراق مركز الحدود السعودي بآلاف الناس ممن لا يملكون أي وثائق، مما سيسهل لهم بعد ذلك دس عناصرهم بين الجموع، والإدعاء - مثل الجميع - أن العراقيين أخذوا منهم كل شيء !

كانت هذه العملية المخابراتية تقليدية جدا، ولم تنطل على السعوديين والكويتيين المتواجدين معهم من قوات الجيش والشرطة، الذين أقاموا مركزا للتدقيق، ولذلك كانت هذه العملية تأخذ وقتا طويلا للتأكد من هويات الجميع.

كان الفتى قد أخفى مسبقا دفتر التجنيد، وأخفى معه بعض الأوراق الأخرى مثل شهادات الجنسية وشهادات الميلاد وحتى الشهادات الدراسية.

فتح القطعة البلاستيكية المثبتة على الباب، وأخرج ما فيها من الأوراق التي أخفاها، وتوجه إلى مكتب تدقيق البيانات. وهناك شاهد ما لا يمكن وصفه من الفوضى والصراخ والعذابات !

فقد خرج الناس من موت محقق، لكنهم فقدوا كل شيء، العراقيون فعلا أخذوا كل وثائقهم وثبوتياتهم، وأصبحوا عالقين في مركز وسط الصحراء في أواخر شهر نوفمبر، بعد أشهر وأسابيع قضوها بين الموت والموت.. والآن يقول لهم شخص بكل بساطة وهو يجلس على مكتب ويشرب القهوة : لا تستطيعون الدخول لأنكم لا تحملون أي أوراق ثبوتية.. تخيلوا هذا !

أخذ الفتى أوراقه ودخل مكتب التدقيق، ولم يعجبه تعامل المسئولين في المكتب مع جموع الناس الهاربين من الموت، فراح يبحث عن وسيلة أخرى

للدخول. توجه إلى مكاتب المسئولين السعوديين هذه المرة، وأخذ يسأل الضباط والشرطة ويشكو لهم سوء معاملة مكتب التدقيق الكويتي معه، ويتوسل أنهم لا يستطيعون الانتظار بسبب وجود طفل رضيع معهم. كانت الإجابات تأتيه بالاعتذار لعدم القدرة على فعل شيء، فهم يتعاطفون معه لكنهم لا يملكون القرار.

استمر صاحبنا بلا كلل يبحث عن شخص يملك القرار، إذ لا يمكن أن تكون الأمور كلها بيد شخص تافه يجلس في مكتب ويطلب من الناس العودة بكل بساطة بعد أن خرجوا بشق الأنفس !

أصبح الوقت عصرا، والفتى لا يزال يبحث عن فرصة، وعن مسئول يستمع ويملك سلطة. تكدس الناس يزداد مع تدفق المزيد من الخارجين، والمكان ضيق ومحدود على أي حال، ورغم جهود مئات السعوديين من مدنيين وعسكريين لتوفير الماء والطعام والرعاية الطبية لكل هؤلاء الجموع، ومحاولة التخفيف عنهم، إلا أن الوضع لا يطاق، وسط بكاء الأطفال وحزن النساء وتذمر الرجال.

اقترب وقت الغروب، وإذا بالفتى يعثر أخيرا على مبتغاه. شاهد أحد الضباط السعوديين يدخل مكتب التدقيق الكويتي، ويتحدث مع المسئولين هناك، فانتظره حتى خرج، ثم تبعه وهو يتوسل إليه ويريه أوراقهم الثبوتية، ويرجوه أن يساعده لأن الطفل الرضيع لا يمكن أن يصمد في هذه الأجواء.. استمر في التوسل والرجل يعتذر أنه لا يملك سلطة على الكويتيين، وأن عمله يبدأ بعد حصول الشخص على الأوراق المختومة من ذلك المكتب.

استمر صاحبنا بالالحاح على الضابط، وزاد بالتوسل بعد أن قرأ في وجهه الاستسلام لهذا النزق الذي لا يريد أن يذهب. وبالفعل، قرر الضابط مساعدته، وأخذ يتفحص أوراقه، وطلب منه أن يأتي معه بعد أن تبين له أن الأوراق سليمة وغير مزورة. ثم دخل مكتب التدقيق ومعه الفتى، وتوجه خلف المكتب حيث يجلس المسئولين الكويتيين ونادى الفتى أن يحضر، وقال للمسئول، هذا الشخص أوراقه تبدو سليمة ووضعهم صعب، أرجو أن تساعدوهم و"خلصوهم لأن في قافلة ستخرج بعد قليل..".

التفت المسئول الكويتي للفتى وبدأ يسأله أسئلة يستبين منها صدقه.. مثل : عنوان سكنه وعن المنطقة والشارع وأسماء مناطق وشوارع في الكويت، وكذلك أسماء شخصيات وعوائل كويتية وأسماء مؤسسات حكومية وغيرها مما يذكر.. والفتى يجيب عليها كلها دون تردد أو ارتباك، حتى تيقن المسئول أنه صادق فأعطاه الورقة المختومة، فأخذها الضابط السعودي وقال له : وين سيارتكم ؟

- هناك .. رد الفتى

- روح قول لأخوك يجي من هناك وينتظرك - وأشار إلى بوابة الخروج من المركز الحدودي - وانت تعال معي للمكتب بسرعة .. قال الضابط.

ركض الفتى بسرعة وأخبر أخيه.. ورجع مهرولا لمكتب الضابط، واستكمل الإجراءات، وأرسل قبلة على رأس الضابط الشهم، وعاد مهرولا إلى السيارة وهو يدعو له بخير الجزاء..

***

## لمّ الشمل

كان السعوديون ينظمون ما يسمونه "القافلة" بين فترة وأخرى لمجموعة من السيارات التي يتمكن أصحابها من إنهاء إجراءات الدخول، فيأخذون مجموعة لا تتجاوز 15 سيارة يتقدمها ويتوسطها ويسير خلفها سيارات شرطة سعودية، ويتجهون بهم إلى مركز إمارة الخفجي، ليستريحوا وينتظروا أقاربهم الآخرين إن كانوا لم ينجزوا إجراءاتهم بعد. وفي مركز الإمارة الذي كان مجهزا بصالة خاصة للرجال، وأخرى للنساء، وبكل ما يحتاجونه من طعام وشراب وملابس وفرش وبطانيات نظيفة ودافئة. وخدمات وحماية أمنية، أمضى الفتى على ما يذكر بضة أيام في إمارة الخفجي. ثم نُقلوا عبر قافلة أخرى إلى منطقة الدمام، حيث أمضوا في المدينة الرياضية هناك على ما يذكر حوالي أسبوعين. كانت المدينة الرياضية مجهزة أيضا بصالتين واحدة للرجال والثانية للنساء، وبكل ما يحتاجونه من طعام وشراب وأمن.

والحق، لا يمكن أن نَفِيَ السعودية وأهلها حقهم مهما قلنا وتحدثنا عنهم، فما قام به خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله، وما قام به أهل المملكة تجاه الكويتيين وبلدهم لا يمكن وصفه بالكلمات. كرم وحفاوة وفزعة تفوق الوصف. كم من عائلة سعودية تركت منزلها لتسكنه عائلة كويتية، وكان التجار يتسابقون في التبرع باحتياجات الكويتيين من الملابس والطعام والأموال وتأثيث المنازل التي يحصلون عليها. بلدا كاملا تم احتلاله، وشعب خرج من بلاده مكرها صفر اليدين، لا يملكون من حطام الدنيا أي شيء، احتضنهم أهلهم وأشقائهم في السعودية وغيرها، وقدموا لهم كل ما يحتاجونه ووقفوا معهم في محنتهم الكبيرة، إلى أن كتب الله لهم النجاة وسخّر لهم من

أصقاع الأرض من يشارك في طرد المحتل ويعيدهم لديارهم بسلام وأمان.. لا يمكن لأي كلمات شكر وعرفان أن تفي هؤلاء الكرام حقهم، ومهما قيل بعد الحدث، فهو لا يمكن أن يصف جزءا بسيطا من الحال آنذاك.. جزاهم الله خير الجزاء. كانوا نعم الأشقاء في وقت تخاذل فيه الكثير ممن كنا نظنهم أخوتنا، وطعنوا الكويت وأهلها غدرا في ظهورهم في أصعب الأوقات.

***

في المدينة الرياضية في الدمام، قام الكويتيون بمساعدة أشقائهم السعوديين بتشكيل فرقا كثيرة لمساعدة الكويتيين خارج وداخل الكويت. وسرعان ما نظموا أنفسهم وبدأوا بإجراءات تمكنهم من جمع شتات الناس. فالاحتلال حدث في بداية شهر أغسطس، أي في العطلة الصيفية التي يقضي فيها كثير من الكويتيين إجازتهم خارج البلاد عادة، وهناك مئات الأسر والأفراد يخرجون بشكل شبه يومي، فكيف يمكن جمع هذا الشتات من الناس وهم لا يملكون وسيلة للتواصل فيما بينهم، ولا يعرفون أين هم وفي أي أرض استقر بهم الحال. ولا تنسوا أننا نتحدث عن عام 1990، فلم تكن وسائل الاتصالات كما نعرفها اليوم، فلا هواتف نقالة ولا بريد الكتروني ولا برامج تواصل اجتماعي تسهل المهمة. فكان لزاما أن يبذل المسئولين جهودا جبارة لجمع الأهل والأقارب بعضهم ببعض، أو على الأقل توفير اتصال فيما بينهم ليعرفوا أحوالهم ومن منهم مات ومن عاش ومن فُقد !

كانت هناك سجلات تُحدّث بشكل يومي وتُلصق على جدران مبنى الاستاد الرياضي في الدمام، قوائم طويلة تضم أسماء من تمكن من الخروج، وعدد

أفراد العائلة، وأين سيسكنون ويستقر بهم المقام، وأرقام هواتف المنازل التي يتواجدون فيها إن أمكن.. وغيرها من المعلومات المفيدة، بحيث يتمكن أي كويتي من زيارة هذه المراكز، والاطلاع على تلك القوائم لمعرفة أماكن تواجد أقربائه إذا وجد أحدا منهم في تلك القوائم، والتواصل معهم أو الاجتماع بهم من جديد. وهذا ما حصل مع صاحبنا. وكان الراديو أيضا وسيلة فعالة لتواصل الأفراد بعائلاتهم، حيث خصصت أوقات معينة لتوجيه النداءات والرسائل بين الناس، ولا يزال الفتى يذكر كثير منها.. أنا فلان ابن فلان من منطقة كذا.. أوجه نداء إلى أهلي في الكويت، وأقول لهم أنا موجود في البلد الفلاني.. الخ

كان الفتى وشقيقه قد أمضوا أسبوعين في المدينة الرياضية في الدمام، ثم تم نقلهم إلى أحد الفنادق القريبة في الدمام أيضا، تمهيدا لاستقرارهم في سكن بعد أن أتموا إجراءات التسجيل والحصول على المساعدة المالية التي خُصصت لهم من حكومة بلادهم في المنفى. وكان الفتى يتردد كل يوم على المدينة الرياضية لقراءة القوائم الجديدة، حتى وجد ذات يوم بيانات أحد أقاربه وعلم منها أنه في الرياض. فتوجه مباشرة بمفرده إلى الرياض، بعد أن قيل له أن نادي الملز الرياضي فيه قوائم أكثر، وبالفعل وجد في قوائم الملز اثنتان من شقيقاته الكبار مع أزواجهن وأولادهن، كما وجد بعض أقاربه هناك أيضا، والأهم من ذلك كله .. - ولا يعرف إلى اليوم كيف حدث هذا - وجد خاله الأصغر الذي كان مفقودا منذ اليوم الأول للاحتلال !

كان لقاء عجيبا، ساد فيه الكثير من الصمت، وتجمدت فيه الكلمات والمشاعر خوفا من تفجر البكاء المكبوت أمام الناس. كان الفتى قد واجه الكثير من المصاعب قبل هذا اللقاء، وقضى وقتا طويلا في البحث عن أخواته

وأقاربه، واضطر إلى النوم في إحدى الحدائق العامة تارة، وفي المساجد أحيانا، وأحسن إليه بعض الناس بما جادت به أيديهم، وهو لا ينسى هذا أبدا.

أمضى الفتى مع خاله بقية تلك الليلة في منزل أحد أقاربه في الرياض، في ڤيلا تركها له صاحبها السعودي عن طيب خاطر وبلا مقابل. كانت ليلة حزينة جدا، فالفتى يحب خاله وأمضى كل طفولته وصباه في بيت أخواله، تربى عندهم وعاش بينهم، وكانت علاقته بأخواله علاقة متميزة جدا. أفرغ الفتى وخاله الكثير من الدموع في تلك الليلة، وأطلقوا من صدورهم زفرات كانت مكبوتة لأشهر، ولا يعرف الفتى كيف قضى ليلته تلك وسط هذه المشاعر والحسرات المؤلمة.

في اليوم التالي، عاد الفتى بصحبة خاله، دون أن يخبر شقيقه وزوجة شقيقه، والتي هي بالمناسبة ابنة خالته، عن عودته بصحبة خالهم جميعا. وصلوا إلى الفندق في الدمام، وصعدوا إلى غرفة شقيقه، وإذا بالمفاجأة تفعل مفعولها بين الخال وأبناء شقيقاته. وهكذا بدأ شيء من شمل هذا الشتات البائس يجتمع، فانتقل الفتى وشقيقه وزوجته وطفله إلى الرياض بصحبة خاله، والذي عاد بعد أيام إلى وحدته العسكرية بعد انقضاء إجازته. لم يستقر بهم الحال في الرياض، فقد كان أحد أقاربهم قد استقر به المقام في بريدة، فاستأجر منزلا هناك، وأقنع أزواج أخواته بالاقامة هناك أيضا، وكذلك أبناء أخته، وهكذا أصبحت بريدة مركزا لتجمع أقارب الفتى، والذي استقر هو الآخر فيها مع شقيقه وزوجته وطفله.

في بريدة، استأجروا منزلا كبيرا، وأعيد اجتماع الأقارب، وحصلوا على مساعدات كثيرة من فرش وأغطية وبطانيات وأواني ومستلزمات للمطبخ والمنزل، لا يزال يذكر أنها كانت بتبرع من رجل الأعمال السعودي الكريم "الراجحي"، جعلها الله في ميزان حسناته، هو وكل الكرام الذين لم يبخلوا على أهل الكويت، وعاملوهم بجود وإحسان وإكرام.

كانت بريدة في ذلك الوقت صغيرة يغلب على أهلها التدين والورع الشديد. تحيط بها المزارع الجميلة والواسعة. ولا يزال صاحبنا يذكر شارع الستين وشارع التسعين وتلك الأيام التي مضت بطيئة ثقيلة محملة بالخوف من المجهول، والرعب من حرب قادمة، والهموم التي أرستها مشاعر التيه والضياع. رغم الحفاوة ومشاعر العطف والمواساة التي لمسوها من الجميع، فالأمر لا يتعلق بالغربة التي يكاد لم يشعروا بها بين أهلهم السعوديين، ولكن الأمر يتعلق بمستقبل مجهول ومحفوف بالمخاطر، بمصير أهلهم وأحبابهم الذين تركوهم خلفهم في بلد محطم سطى عليه مجرمون لا يرحمون، الأمر يتعلق بآلاف الأخبار والإشاعات التي تتحدث عن حرب شاملة وشيكة ستحرق الأخضر واليابس، ستستخدم فيها أسلحة دمار شامل، وإجراءات انتقامية ضد الكويتيين من قبل جيش الاحتلال العراقي.. الأمر يتعلق إذن بمخاوف حقيقية لا تهدئها مشاعر العطف والإحسان.

مرت الأيام ثقيلة، ولم يتمكن صاحبنا من التطوع في جيش بلاده بسبب سفر أخيه إلى البحرين لاستكمال دراسته، والتحاق زوج أخته الكبيرة في وحدته العسكرية، فقد وجد نفسه مسئولا عن عائلة كبيرة من النساء والأطفال، في مكان لا يعرف فيه أحد.

كان شقيقه قد تمكن من الحصول على جواز سفر جديد من سفارة الكويت في الرياض، وتم ترتيب الأمر له لمواصلة دراسته في كلية الطب بـ "جامعة الخليج العربي" في البحرين آنذاك، لكن لم يصرف لزوجته وابنه ولا للفتى جوازات سفر لمرافقته، فكانت الإجراءات حينها بغاية التشدد، حتى أن الفتى سافر بعدها بأيام إلى الطائف حيث تقيم الحكومة المؤقتة لبلاده، في محاولة يائسة للحصول على موافقة باستخراج جوازات سفر له ولزوجة أخيه وطفلها. ولا يزال يذكر تلك الرحلة الشاقة، والتي استمرت ثلاثة أيام، قطع فيها حوالي 900 كيلومتر ذهابا من بريدة، ومثلها في طريق العودة، وكان ينام في السيارة لأنه لم يكن يملك ثمن إقامة في فندق أو استراحة حتى. كان ذلك في منتصف شهر ديسمبر 1990. وخرج من رحلته الشاقة تلك خالي الوفاض، ولم يتمكن من مقابلة أي مسئول في الحكومة، والتي كانت مشغولة بالتأكيد بما هو أهم وأكبر من استخراج جواز سفر لمواطن، فقد كانت ترتيبات الحرب والتنسيق بين الجيوش الهائلة هي الشغل الأهم.

واجه الشاب وشقيقه خالد الفراق مرة أخرى، وتم فصل شقيقه خالد عن زوجته وطفله الرضيع، وعن أخيه الأصغر بالتأكيد، بسبب إجراءات بيروقراطية تافهة، لا تراعي ظروف الناس ولا تلقي لمعاناة البشر أي اهتمام !

لم يكن للفتى غرفة مستقلة في ذلك المنزل الكبير الذي جمع أخواته في بريدة، فالعائلة كبيرة والغرف محدودة، فكان ينام على فراش بسيط على الممر المؤدي لدورة المياه، ولكم أن تتخيلوا حاله في ذلك المكان، وكيف مرت الأيام والأسابيع والأشهر في مثل هذا الوضع.

***

يذكر الفتى اتصالا جرى بينه وبين والده في أواخر شهر ديسمبر، لا يذكر الكثير من تفاصيل ذلك الاتصال، وكيف حصل والده على رقم الهاتف وكيف تم ترتيب الأمر. لكنه يذكر جيدا أن والده سافر إلى العراق حينها كي يجري ذلك الاتصال، ربما من البصرة على ما يذكر صاحبنا، وكان أحد أقارب الفتى الذي يقيم في الرياض قد أخبر صاحبنا بموعد الاتصال وطلب منه الحضور للحديث مع والده بعد أن رتب لهما موعدا لاتصال آخر. سافر الفتى إلى الرياض بصحبة خاله الأصغر، واستطاع أن يتحدث مع والده عبر الهاتف، حديثا قصيرا تبادل فيه الوالد وابنه أخبارهما وكيف يدبران حياتهم وكيف يقضون أيامهم، وتلقى الفتى من والده ما أعانه على الصبر وانتظار الفرج القريب بإذن الله، وتلقى الوالد من ابنه ما طمأنه على أخيه الأكبر وعلى أخواته، وشرح له بسرعة أن أمورهم طيبة وأنهم يتلقون رعاية كاملة من حكومة بلادهم في المنفى، وبضيافة كريمة من أهل السعودية أينما حلوا وتواجدوا.

## طبول الحرب

مع اقتراب انتهاء المهلة التي أعطاها القرار الدولي 678 لجيش الاحتلال العراقي للخروج من الكويت بلا شروط قبل 15 يناير 1991، أصبحت الأحداث تتسارع والخيوط تتجمع حول أمر واحد، الحرب.. فلا حديث غير حديث الحرب، ولا أخبار سوى أخبار الاستعدادات للحرب، أعداد جيوش ومناورات وأسلحة تنقل وقادة يلتقون ويجتمعون ويناقشون خطط الحرب المنتظرة.

كان موضوع الأسلحة الكيماوية طاغيا على غيره لا شك، فصدام ديكتاتور مجنون، يفعلها كما فعلها في حلبچة في منتصف مارس 1988، وقتل فيها أكثر من 6 آلاف إنسان بريئ من الأكراد. ما الذي سيمنعه، بل ما الذي سيمنعه من فعل أكثر من هذا إذا ضاقت الدائرة حوله واقتربت هزيمته، فأمثاله لا يعرفون سوى الدمار الشامل بعقلية "علي وعلى أعدائي" .. وهو ما حدث فعلا كما سيتبين !

حل الخامس عشر من يناير 1991، ذلك اليوم الذي انتظره الجميع بفارغ الصبر. لكن لم يحدث شيء ! وجاء بعده يوم 16 ، ولم يحدث شيء أيضا. ساد الخوف وسرى الشك في نفس الفتى كما سرى في نفوس الكثيرين غيره. ترى، هل ستصدق الاشاعات التي كانت تتردد بأن ثمة اتفاق بين صدام حسين والأمريكان ؟ هل ستبقى بلاده تحت الاحتلال العراقي وأن كل هذه الجيوش والتصريحات السياسية والعسكرية مجرد وهم ؟!

تلك أيام صعبة، ينتشر فيها اليأس والخوف أسرع من الصوت. وحال من يترقب أمرا جللا ليس كحال من يقرأ عن ذلك بعد عشرين عاما لا شك. خوض التجربة ليس كالحديث عنها، والمصريون يقولون "إللي إيده في الميّة، مش زي اللي إيده في النار".

***

حل السابع عشر من يناير 1991، ومع ساعات الفجر الأولى، انطلقت أولى طائرات التحالف الدولي من أرض السعودية لتقصف جيش الاحتلال العراقي، وتجبر صدام وجيشه على الانسحاب بالقوة من الكويت، بعد أن تعنت وعاند بصلف الطفل الجاهل طوال أكثر من سبعة أشهر، وقد كان بإمكانه أن يحفظ كثير من الأرواح البريئة التي سقطت في تلك الحرب.

تسمّر الفتى كما تسمّر غيره أمام شاشات التلفزيون والراديو.. يتلقفون بلهفة مشبوبة بالخوف والهلع عشرات الأخبار التي تصف الحرب: 64 طلعة جوية نفذتها طائرات الأباتشي، حققت أهدافها ونسفت محطات رادارات العدو، 1200 طلعة لطائرات إف 16 وطائرات جاجوار وصواريخ توما هوك وصواريخ كروز الذكية التي تنطلق من البارجات الضخمة الراسية في الخليج العربي منذ أشهر، في انتظار ساعة الحسم. أصبح الجميع خبراء أسلحة يميزون بين الصواريخ والطائرات ويعرفون أي منها لهذه المهمة وأي منها لتلك، فطائرات الأواكس للرصد والاحداثيات، والأباتشي للطيران المنخفض وضرب الجنود، وطائرات بي 52 الضخمة لارسال الدمار الهائل على مواقع عسكرية كبيرة وعلى مخازن السلاح الضخمة.

إنها الحرب إذن.. تلك التي لا تبقي ولا تذر. يذكر الفتى عندما قام صدام بإرسال بضعة صواريخ سكود إلى الكيان الصهيوني المحتل في فلسطين، في محاولة بائسة واستعراض رخيص لتضليل الرأي العام العربي والإسلامي، وتسويق الحرب لا على أنها حرب تحرير الكويت من الاحتلال العراقي، وإنما حرب صليبية ضد العراق الذي يريد أن يحرر فلسطين .. عبر الكويت !

المؤسف، أن هذه الحركة المخادعة حققت أهدافها حينها، ولا تزال لدى الكثير من أبناء هذه الأمة المنكوبة، الغارقون منهم بالتفكير العاطفي السطحي والساذج، المنساقون وراء كل كاذب ومخادع من أمثال صدام ورفاقه. وليس أدل على ذلك من التعاطف الذي كسبه هذا الديكتاتور المجرم بعد إعدامه عام 2006، إذ من المألوف جدا أن تجد من يصفه بالبطل والزعيم الذي واجه أميركا وقصف إسرائيل، متجاهلين ومغيبي العقل تماما عن آلاف الهزائم والجرائم والدمار والضحايا التي خلفها هذا المعتوه هو ورفاقه ممن سطوا على السلطة وعاثوا بالعراق وأهله فسادا وقتلا وتنكيلا.

تقول التقارير المختصة، أن ضحايا الحرب العراقية الإيرانية التي دامت ثمان سنوات، أكثر من مليون إنسان قتلوا مناصفة من الجانبين، وثلاثة أضعاف هذا العدد، أي أكثر من ثلاثة ملايين إنسان جريح، وآلاف المفقودين والمشردين والمرضى بأمراض الحروب النفسية البشعة، ومبتوري الأطراف، فضلا عن الدمار الهائل الذي طال البنية التحتية والمباني والمنازل في كلا البلدين.. دون أن يتغير أي شيء في جغرافيا المنطقة قبل الحرب وبعدها، فأي عبث هذا بمصائر البشر، وأي جنون هذا الذي يدفع ثمنه الملايين ممن لا يحلمون بأكثر من حياة بسيطة، يأمنون فيها على حياتهم، ويحصلون فيها على ما يسد جوعهم ؟!

***

ويذكر الفتى من بين تلك الصواريخ العراقية العبثية، تلك التي أطلقها على مدينة الرياض بعد أيام من بدء الحرب الجوية في 17 يناير 1991، كان صاحبنا في الرياض عند أحد أقاربه ذلك اليوم، ويتذكر جيدا عندما عاد إلى أهله في بريدة فجر اليوم التالي، كانت الشوارع شبه فارغة، وطلب منه شرطي مرور أن يهرب بسرعة ويتحصن عن "الكيماوي". فقد انتشر وقتها أن صدام سيضرب السعودية بالصواريخ الكيماوية، وكانت الكمامات الخاصة بالحماية من الأسلحة الكيماوية تشاهد في كل مكان، حتى عند شرطة المرور كما شاهدها صاحبنا بنفسه.

ويذكر الفتى الخبر الصاعق الذي انتشر في 29 يناير 1991، والذي يقول ان القوات العراقية قامت بهجوم بري على السعودية من جهة الجنوب، واحتلت مدينة الخفجي. لكن سرعان ما تبين أنها مجرد عملية انتحارية هوجاء، تم فيها توريط مجموعة من الجنود المساكين وإجبارهم على الدخول إلى عرين الأسد، من أجل التغني بانتصار وهمي لا أكثر. إذ سرعان ما تصدت قوات الحرس الوطني السعودي، ومعها قوات من الجيش القطري، تساندهم قوات من الجيش الأميركي لهذا العبث المجنون، وقضت على جميع القوات العراقية، واستعادت المدينة خلال يومين. قُدّرت خسائر الجيش العراقي حينها بحوالي 300 قتيل ، و 40 أسيرا، راحوا ضحية جنون رجل أرعن لا يتوقف عن نطح الصخور.. حتى يتكسر رأسه !

## الحرب البرية

استمرت عمليات القصف الجوي من طائرات وصواريخ قوات التحالف 43 يوما، تم خلالها تدمير كل مقومات وقدرات الجيش العراقي الأساسية، حتى أصبح الطريق ممهدا للهجوم البري الذي سينهي الحرب بطرد المحتل. وهذا ما حصل، إذ لم تستغرق الحرب البرية سوى يومان، لم تواجه خلالها قوات التحالف البرية أي مقاومة تذكر من قبل الجيش العراقي المحتل، بل واجهوا جنودا خائفين حد الهلع، خرجوا من خنادقهم رافعين رايات الاستسلام.. ولن ينسى العالم مشاهد تقبيل أحذية جنود التحالف من قبل الجنود العراقيين، والتي أذاقت الذل ليس للجيش العراقي فحسب، بل للعالم العربي والإسلامي كله بسبب رعونة وجنون صدام حسين ورفاقه، ممن يتغنى بهم السذج هنا وهناك. لم تكن تلك الهزيمة النكراء هزيمة لصدام حسين أو لحزب البعث فقط، بل كانت بداية هزائم وويلات على المنطقة كلها، جرها إليها حماقة هؤلاء المجانين بحروب عبثية حرقوا فيها خيرات الأمة وشبابها.

بدأت الحرب البرية في 24 فبراير 1991، وانتهت بعد يومين في 26 فبراير بإعلان انتهاء الحرب وتحرير دولة الكويت من الاحتلال العراقي الغاشم. تشير التقارير - رغم اختلافها - إلى أن خسائر العراق من هذه المغامرة المجنونة، بلغت أكثر من 100 ألف قتيل، وأكثر من نصف مليون جريح، وحوالي 30 ألف أسير، فضلا عن الدمار الهائل الذي لحق بالعراق من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه. وإذا أضيف لكل هذا، الدمار الذي لحق بالكويت، من قتل ونهب وحرق لآبار النفط التي أشعلها صدام حسين وطالت أكثر من 700 بئر نفطي، بلغت خسائرها المادية لوحدها حوالي 80 مليار دولار حسب

تقديـرات الأمم المتحـدة، إضافـة لخسـارة قـدرت بمبلـغ 30 مليـار دولار للبنيـة التحتيـة في الكويـت، فـكان مجمـوع خسـائر الكويـت الماديـة مـن هـذا الاحتـلال الأرعـن حـوالي 110 مليـار دولار، صـدرت فيهـا قـرارات دوليـة ألزمـت العـراق على دفـع تعويضـات ماليـة للكويـت، فتأملـوا فـي حجـم الخسـائر والمـآسـي الـتي خلفتهـا هـذه المغامـرة الطائشـة عـلى العـراق وعـلى الكويـت وعـلى المنطقـة ككل.

***

## العودة إلى الكويت

وضعت الحرب أوزارها، وتحررت الكويت من براثن الاحتلال العراقي الغاشم، ذلك الاحتلال الذي جثم على صدور أهلها أكثر من سبعة أشهر كئيبة، عم فيها الفساد والنهب و"الفرهود" والقتل والتعذيب وتشريد الأسر وتفريق الأهل والأحباب. عادت الأرض لأصحابها، في سابقة ربما لم تحصل مثلها في التاريخ المعاصر، حتى مع الفرنسيين والبريطانيين والسوفييت في الحرب العالمية الثانية، والتي أعيد تحريرها من الاحتلال الألماني النازي بمساعدة قوات التحالف الدولي عام 1945، إذ لم تزد قوات التحالف آنذاك عن 4 دول. بينما تهيأ للكويت تحالف من 32 دولة ساهمت بجيوشها وأموالها لطرد جيش الاحتلال العراقي الذي احتل الكويت بأكملها. تلك نعمة تستوجب الشكر والحمد الله عز وجل، والعرفان بالفضل لكل من ساهم في هذه المهمة العسيرة، من دول وأفراد كثر قدموا على قدر استطاعتهم الكثير من المساعدات للكويت وأهلها في تلك المحنة القاسية.

كانت مشاهد الفرحة التي اجتاحت الكويت من أقصاها إلى أقصاها تصل للعالم أجمع، وكان الفتى يشاهدها في التلفزيون وقلبه يتقطع شوقا للعودة إلى بلاده. أخذ يبحث عن فرصة لدخول الكويت مهما كان الثمن. كانت الأجواء قاتمة جدا، فالبلاد غطاها الدخان الأسود الكثيف الناتج عن حرق آبار النفط من قبل جيش الاحتلال العراقي، والكهرباء كانت مقطوعة عن أغلب المناطق بفعل القصف الجوي أو التدمير المتعمد من الجنود العراقيين. وكانت صحراء الكويت معظمها قد زرعت بالألغام !

كيف السبيل إلى دخول الكويت ؟ هذا ما كان يشغل الفتى ويشعل ليله ونهاره بنار اللهفة. لا أخبار تصله عن أهله في الكويت، والده ووالدته وأخوته وأقربائه. الاتصالات مقطوعة منذ أشهر، وأخبار القتل والانتقام التي ارتكبها جنود الاحتلال العراقي خلال هروبهم تثير الهلع.

لم يستطع الفتى أن يحتمل أكثر، فقرر دخول الكويت بأي طريقة، حتى لو لأيام معدودة يطمئن فيها على أهله ويعود من جديد لأخواته في بريدة. أشار عليه أحدهم أن يتطوع مع الجيش الكويتي ويدخل معهم، وقيل له أن باب التطوع لا يزال مفتوحا. فتوجه صاحبنا بالفعل إلى قاعدة الملك خالد الجوية في الظهران كما قيل له، ولم يتمكن من دخولها، وأعطي عنوانا آخر لمركز المتطوعين للجيش الكويتي، وتوجه إليه، ولم يستطع التطوع، وقيل له أن الحرب انتهت والجميع سيذهب إلى الكويت، وأن بإمكانه أن يتطوع في الدفاع المدني لاحقا هناك. عاد الفتى خائبا إلى بريدة، يحمل في صدره نارا لا تطفئها كلمات المواساة والدعوات إلى الصبر. ثم كرر المحاولة في الدمام، ولا يزال يذكر أنه دخل بيوتا لكويتيين لا يعرفهم، وقضى أياما يتنقل من مكان إلى مكان بحثا عمن يساعده على دخول الكويت. يذهب إلى مراكز التجمعات وتسجيل البيانات ويختلط بالناس ويسأل ويستجدي المساعدة في تحقيق رغبته، فيحيله هذا إلى ذاك، ويصبره هذا ويسخر منه ذاك.. والفتى يغلي ولا يريد إلا العودة إلى بلاده والاطمئنان على أهله.

عاد صاحبنا مرة أخرى إلى بريدة بعد أن فشلت كل محاولاته لدخول الكويت. عاد ويا سبحان الله كيف يصرف الأمور ويقدر شئون العباد.. عاد فإذا بوالده وعمه قد وصلوا لتوهم من الكويت، كيف ؟ لا يدري !

هـدأت العاصفـة، وانطفـأت النـيران، وسـادت الطمأنينـة والسـكينة باجتمـاع الأب مـع ابنـه، ووصـول الأخبـار الطيبـة الـتي تؤكـد أن الجميـع بخـير، وأن الهـم قـد انـزاح، والمحتـل أُخـرج بالقـوة يجـر أذيـال الخيبـة والهزيمـة، مهـما كـذب وزوّر وأطلـق التسميـات الواهيـة عـلى تلـك الحـرب الـتي طحنتـه، وراح يكـذب عـلى شـعبه بتسميتهـا "أم المعـارك" ويـدعي كعادتـه في الكـذب والادعـاء انتصـاره فيهـا.. فالانتصـار في مفاهيمـه هـو مجـرد بقائـه حيـا في منصبـه !

أمـضى الوالـد بضعـة أيـام مـع أبنائـه وأقاربـه في بريـدة، ثم شـد الرحـال معهـم عائـدا إلى الكويـت، بعـد أن تـزود بمـا تيـسر لـه مـن الـزاد والمؤونـة إلى عائلتـة الـتي تنتظـره هنـاك. تـولى الفـتى قيـادة سـيارة والـده، ومـن فـرط الفرحـة كاد يتسـبب بحـادث كبـير قـرب "حفـر الباطـن"، لـولا لطـف الله عـز وجـل وعنايتـه.

كانـت تلـك الغيمـة السـوداء الضخمـة أول مـا يلفـت الانتبـاه كلـما اقتربـوا مـن الكويـت. كان الفـتى قـد سمـع مـن قبـل عـن حـرق العراقيـين لآبـار النفـط الكويتيـة، وعـن الدخـان الـذي اجتـاح سمـاء البـلاد، لكنـه لم يتخيـل أبـدا أن تكـون بهـذا الحجـم وبهـذا الـضرر.

دخلـوا الكويـت عـن طريـق منفـذ السـالمي الحدودي غـرب البلاد مع السـعودية. ولا ينـسى الفـتى أبـدا ذلـك اليـوم، وذلـك الطريـق الوعـر المليـئ ببقايـا ومخلفـات الحـرب في كل مـكان. آليـات عسـكرية مدمـرة وحواجـز ومتاريـس وأسـلاك شـائكة هنـا وهنـاك، ودبابـات محمولـة عـلى ناقلاتهـا، وآلاف الجنـود يبذلـون ما في وسـعهم لتأمـين الطـرق ووضـع الحواجـز لمنـع النـاس مـن الاقـتراب مـن حقـول الألغـام. الدخـان الأسـود يـزداد كثافـة، أحـال معـه أجـواء الكويـت إلى ليـل دائم.

وصل الفتى ووالده إلى منزلهم عصرا، وضج المنزل بدموع الفرح والابتهاج، وكأن أحدهم قد عاد من الموت، لكنها كانت فرحة منقوصة، مشوبة بألم الانتظار، انتظار من لم يعودوا بعد. قضى صاحبنا وقتا غير عادي ذلك اليوم، زيارات عائلية من أقاربه الذين جائوا يهنئون بعودته سالما، ويسألون عن أخبار أحبابهم الذين كانوا معه في السعودية.. كيف حالهم وكيف يقضون أيامهم ومتى سيعودون ؟!

لم يستوعب في بادئ الأمر صعوبة الأوضاع والأوجاع التي خلفها الاحتلال، لم يكترث مثلا لانقطاع الكهرباء، ولم يدرك بعد تأثير الدخان الأسود على الصحة وعلى الحياة اليومية للناس، ولم يواجه بعد صعوبات الواقع الجديد، فالبلد كانت تحت الأحكام العرفية، الجيش منتشر في كل مكان على نقاط تفتيش، ولا تزال كثير من الشوارع كما تركها قبل خروجه، ثكنات عسكرية ومتاريس وحواجز اسمنتية تسد الطرقات. لا تزال البلاد تعيش مظاهر العسكرة.. انها فوضى ما بعد الحرب، بكل ما فيها من مخاطر وخذلان وحطام كما صورها بابداع رهيب الأديب الألماني الكبير هاينريش بول في أعماله الخالدة التي وصف بها فضائع الحرب العالمية الثانية، والتي شاهد الفتى مثلها في بلاده، انتشار السلاح والقنابل والألغام والكثير من الجنود العراقيين الهاربين وبعض المتعاونين مع الاحتلال. في مثل هذه الأجواء المتوترة والمشحونة يمكن لأي موقف تافه أن يتحول لمأساة، يمكن أن يقتل الناس على وشاية كاذبة، أو حماقة عادية في غير هذه الظروف، كالسرعة وعدم الانتباه لنقطة التفتيش، فهذا خطر حقيقي قد يؤدي للتعرض لاطلاق النار من قبل الجنود إذا ظنوا ذلك هجوما مسلحا عليهم !

انهـا فـوضـى، وفي الفـوضـى يتوقـع حـدوث أي شـيء في أي وقـت وبـلا مـبرر.. لم يسـتغرق الأمـر وقتـا طويـلا ليعـود صاحبنـا إلى دوامـة الخطـر اليـومي، ومواجهـة المـوت وجهـا لوجـه في كثـير مـن المواقـف. يذكـر ذات مـرة قـام فيهـا بإيصـال أحـد أقاربـه إلى وحدتـه العسـكرية، وبسـبب الدخـان الأسـود الكثيـف كاد يتعـرض لاطـلاق النـار مـن قبـل نقطـة تفتيـش لم يراهـا، وكان مسرعـا إلى حـد مـا.

لم يكـن النـاس يمـيزون الليـل مـن النهـار في تلـك الفـترة، فالدخـان كان كثيفـا مـلأ سمـاء البـلاد بأكملهـا، بـل وتعداهـا لمناطـق مجـاورة، وصلـت إلى مناطـق في إيـران حـتى. وكان صاحبنـا إذا صحـا مـن النـوم، يسـأل أول مـا يسـأل عـن الوقـت، وهـل هـو صبـح أو مسـاء، خاصـة إذا نـام العـصر، فالسـاعة حـين تشـير للسـابعة، لا يتبـين مـن السمـاء الملبـدة بالدخـان إن كانـت السـابعة مسـاء أم السـابعة صباحـا. لكـن حالـة الارتبـاك في الوقـت هـذه لا تعـني شـيئا أمـام المخاطـر الصحيـة الـتي تراكمـت بسـبب الاستنشـاق الطويـل لهـذا الدخـان النـاتج عـن حرائـق مسـتمرة لأكـثر مـن 700 بـئر نفـطي، ولـكم أن تتخيلـوا حـال مـرضى الربـو كيـف كانـوا يقضـون حياتهـم في هـذا الجـو الصعـب !

أمـا مـا هـو أخطـر مـن الدخـان، فـكان انتشـار الأسـلحة ومخلفاتهـا مـن قنابـل وألغـام بشـكل خـاص، فقـد كانـت حـوادث انفجـار لغـم في سـيارة شـبه يوميـة، وكذلـك حـوادث انفجـار القنابـل غريبـة الشـكل الـتي كانـت جيـوش التحالـف ترميهـا عـلى جنـود الاحتـلال، منهـا مـا هـو عـلى شـكل أقـلام ومنهـا مـا هـو عـلى شـكل علبـة صغـيرة وغيرهـا، وهـي الـتي حصـدت أرواح الكثـير ممـن أمسـكوا بهـا، وتسـببت بتشـوهات وبـتر أطـراف لكثـير غـيرهم، ومنهـم 5 أطفـال مـن أبنـاء أخوالـه، وجـد أحـدهم جسمـا غريبـا لـه "برشـوت" صغـير، جسـم يشـبه اللعبـة،

تجمع حوله أخوته لمشاهدته، وإذا به ينفجر ويقتل اثنان منهم مباشرة، وجرح الثلاثة الباقين جروحا عميقة، أحدهم لا يزال يحمل في بطنه أجزاء صغيرة من شظايا تلك القنبلة اللعينة لم يتمكن الأطباء من اخراجها.

مآسي الحروب كثيرة ومؤلمة، تجرح النفوس وتضربها في العمق، مخلفة آثارا ليس من السهل استئصالها، وشخصيات محطمة يصعب اصلاحها، وندوب لا يمكن اخفاؤها مهما بذل من جهد. ولا يفهم صاحبنا كيف يمكن لأحد أن يحتفي بالقتل، حتى وإن كان المقتول جنديا من جنود الأعداء، فأي بؤس هذا الذي أصاب البشرية وأحالهم لبشر بلا قلوب تفرح بموت إنسان آخر، بل أي بؤس ذاك الذي جعل الإنسان يبتكر آلاف الأسلحة المرعبة التي تفتك وتحصد الأرواح بالجملة، حتى غدت الحروب أمرا عاديا، وقرارا بسيطا يتخذ في جلسة اجتماع لأشخاص وهم يحتسون الشاي والقهوة ويأكلون الشكولاتة والبسكويت، ويبتسمون لعدسات الكاميرات ! أي انحراف هذا الذي جعل البشر يستهلكون ثلثي ثروات الأرض على التسلح وتدريب الجنود على القتل بدقة فائقة ولأكبر عدد ممكن وفي أسرع وقت ممكن !

لكنه عبث الانسان وجنونه اللذان جعلاه يختار أصعب الطرق وأكثرها عنفا لحل مشاكله والتحكم بغرائزه وجشعه. لعن الله الحروب، ما أقساها وما أبشعها، ولعن الله كل من يشعلها.

يقول الأديب الروسي الفذ فيودور دوستويفسكي في روايته العظيمة "الأخوة كارامازوف"، وعلى لسان أحد أبطالها "إيفان" : "لا يستطيع الحيوان أبدا أن يكون قاسيا مثل الإنسان، ذلك المخلوق الذي يتفنن ويبتكر أساليب القسوة".

***

يتذكر صاحبنا كيف كان يتجول في كثير من ساحات المعارك، بين حطام الآليات العسكرية وبقايا الجنود ومخلفات الحرب، خاصة في منطقة "المطلاع" والتي حصدت من الأرواح أكثرها !

يا له من فضول جارح ذاك الذي قاد صاحبنا بين ذلك الحطام، كان يبحث عن شيء لا يعرفه، ولا يزال يتذكر منظر المسروقات المتدلية من بعض جثث الجنود، وآلاف الخوذ العسكرية المنتشرة في المكان، بألوانها الخضراء القاتمة، مهترئة وصدئة، لم تحم رؤوس من ارتدوها. كانت حقائب الجنود ملقاة هنا وهناك، ليس فيها سوى مسروقات تافهة بلا ثمن، وأدوات بالية تبعث على الحزن والاكتئاب. لا رسائل ولا كتب ولا أي شيء مما كان يحمله الجنود في الحرب العالمية الثانية مثلا.

تروي بعض الأدبيات أن حقائب كثير من الجنود في الحرب العالمية الثانية كانت لا تخلو من كتاب أو أكثر، روايات ودواوين شعر وكتب في التاريخ والقانون، ودفاتر مذكرات يومية. حتى أن بعضهم وصف الحرب العالمية الثانية بأنها أكثر الحروب اشتغالا بالأدب. ولا تزال كثير من المتاحف تحتفظ ببعض تلك الحقائب، ومحتوياتها من أدوات خاصة بالجنود، كأمواس الحلاقة وأطباق معدنية للأكل، ورسائل عائلية وكتب، ممزوجة بالدماء والطين وآثار بائسة من مخلفات المعارك. يصعب فهم تلك الحياة إلا على أنها محاولات بحث عن لحظات سعادة قبل الموت المحتم، إذ تصغر الحياة بأسرها في عيون هؤلاء البائسين، ممن يدخلون في دوامة الموت كل لحظة، قاتلين أو مقتولين.

الحرب دمار.. تقضي على كل شيء، إنها تقضي على أهم ما في حياة البشر، وهو "معنى الحياة" وغايتها، وتحيلهم إلى كائنات لا تشعر بأي قيمة لأي شيء، وتسيطر عليهم مشاعر اللاجدوى والعدم.

يكفي أن تقرأ قصائد الأديب والشاعر البريطاني روديارد كيبلينغ لتشعر بما يشعر به الجنود وهم في لحظات الخوف في الخنادق وبين الأسلاك الشائكة..

كتب كيبلينغ عن حرب بلاده في أفغانستان : "عندما تُجرح وتُلقى على سهول أفغانستان، وتأتي القسوة لتُقطِّع ما تبقّى منّك، ازحف نحو رشّاشك، وفجِّر دماغك، واذهب إلى ربِّك كجندي".

أو يكفي أن تقرأ كتابات الأديبة البيلاروسية سفيتلانا أليكسيفيتش لتدرك بؤس الحروب، وكم هي لعينة وعبثية ومدمرة للبشر قبل الحجر.. تقول سفيتلانا مثلا في "فتيان الزنك" التي سطّرت فيها آلام ومرارة الأمهات ممن فقدن أبنائهن في حرب الاتحاد السوفييتي السابق ضد أفغانستان طوال عشرة أعوام، من عام 1979 إلى عام 1989 .. تقول عن الحرب التي عاد منها ابنها الشاب شخصا آخر غير الفتى الذي ذهب، عاد مشوش التفكير مضطرب النفس مكتئبا خائفا طوال الوقت، لا يستطيع النوم من كثرة الكوابيس وأصوات انفجارات الصواريخ والقنابل، وأزيز الرصاص التي يسمعها تحفر في رأسه طوال الوقت حتى أصابته بالجنون، وقام بارتكاب جريمة بشعة ضد إنسان برئ، قطّعه بالطّبر إلى أجزاء صغيرة (على الطريقة الأفغانية

كما تقول سفيتلانا)، وأعاد الطّبر للمطبخ وتوجه لغرفة المعيشة يتفرج على التلفزيون وكأنه لم يفعل شيئًا !

"غراد تطلق القذائف، والألغام تتطاير. وفوق هذا كله: تريد أن تعيش ! أن تعيش ! أن تعيش ! وأنت لا تعرف شيئًا ولا تريد أن تعرف آلام الجانب الآخر. بل أن تعيش فحسب. أن تعيش !

هكذا تقول سفيتلانا في روايتها المؤلمة "فتيان الزنك". والزنك هنا مقصود به التوابيت التي كان الجيش السوفييتي يستخدمها لنقل جثث قتلاهم من ساحات المعركة.

***

## وتستمر الحياة

أخذت الحياة تعود لمجراها "الطبيعي" شيئًا فشيئًا في الكويت، لكن ببطئ شديد. إذ ليس من السهل إعادة الحياة لبلد تم احتلاله بالكامل، ونهبه وتدميره وتشريد شعبه ثم تحريره بحرب ضخمة استعملت فيها مئات آلاف الأطنان من الأسلحة والذخائر فائقة التدمير. ناهيكم عن حرق أكثر من 700 بئر نفطي، هي ثروة البلاد وعصب حياتها، قدّر الخبراء آنذاك خمس سنوات لاطفائها، ولكن الله عز وجل قدّر لها أن تخمد نيرانها بعد ستة أشهر، ولا تعجب من لطف الله وحسن تقديره.

شيئًا فشيئًا بدأت تغيب مظاهر العسكرة من شوارع الكويت، شيئًا فشيا استعادت مؤسسات الدولة الرسمية دورها، ومضت الحياة في مسيرتها، رغما عن الجميع، بآلامها ومصاعبها وندوبها.

التحق صاحبنا بالجامعة، وعاد شقيقه خالد من البحرين ليستكمل دراسته في وطنه وبين أهله، التئم شمل الأحبة هنا وهناك، عاد من عاد، وفُقِدَ من فقد، ومات من مات، وظل سؤال الحرب يتردد صداه في ذهن صاحبنا ليل نهار، حتى تحكم السؤال بعقله، وحدد مسار حياته اللاحقة كلها، إذ قادته تلك التساؤلات اللحوحة إلى التحول من دراسة الفيزياء في كلية العلوم، إلى دراسة الفلسفة في كلية الآداب !

ما الذي جناه العراق من تلك المغامرة الطائشة التي قام بها قادتهم آنذاك؟ ما الذي حصده صدام وعصابته غير دمار بلاده وبلادنا، وقتل شبابه

وشـبابنا، بـل هـل كان هنـاك مـا يسـتحق كل ذلـك العـذاب والآلام ليخـوض مـن أجلـه تلـك الحـرب الطاحنـة المدمـرة؟

مـاذا؟ كذبـة الأصـل والفـرع؟ أي أصـل وأي فـرع فـي عـالم متغـير، يتنقـل فيـه البـشر وتتحـرك فيـه الجغرافيـا ويتغـير فيـه التـاريخ كل يـوم ؟! كم مـرّ عـلى العـراق مـن ممالـك وسـلاطين، ألم يحكمهـم الملـك فيصـل الأول وأبنائـه مـن بعـده، وهـو الحجـازي الأصـل والمولـد والنشـأة ؟ هـل يعـطي ذلـك الحـق للسـعودية بالمطالبـة فـي العـراق بوصفهـا "فـرع" يجـب أن يعـود لأصلـه ؟! أي جنـون وأي حماقـة تلـك الـتي تسـكن عقـول أمثـال هـؤلاء، ممـن يتحكمـون بمصائـر النـاس ويعبثـون بحياتهـم !

ظـل هاجـس الحـرب وتسـاؤلاتها تلعـب فـي عقـل الشـاب، ولم تبارحـه يومـا، كمـا لم تبـارح الحـروب عالمـه يومـا. اسـتمرت الحيـاة وعـادت لمجراهـا، لكـن صـدى الحـرب ظـل يـتردد.. كمـا ظلـت كلمـات الأديـب الألمـاني هاينريـش بـول تـتردد فـي أعماقـه ليـل نهـار "لقـد عرفـت أن الحـرب لـن تنتهـي أبـداً، طالمـا ظـل يـنزف فـي مـكان مـا، جـرح سـببته الحـرب".

***

تلـك أحـداث مضـت، بضيقهـا وأهوالهـا.. وتلـك أيـام ولـت، بأحزانهـا وويلاتهـا. لم يبـق منهـا سـوى الذكريـات، أليمـة فـي مجملهـا، كئيبـة فـي معظمهـا، حملـت همـا عـلى هـم. رحـل فيهـا مـن رحـل، وبـقي فيهـا مـن ينتظـر..

غرامي في الحروب يسبق سلامي،
وأملي في الشعوب يخلق غنايا،
وعشقي للكلام غالب سكوتي،
وكرهي للسكات جالب شقايا

احمد فؤاد نجم

انتهى

## فهرس المحتويات


البداية..... 6

في بغداد..... 21

قبيل الاحتلال ..... 91

ليلة الهجوم..... 12

ضاقت الدائرة..... 73

يوم لا ينسى..... 14

الخروج من الكويت ..... 54

لمّ الشمل..... 06

طبول الحرب ..... 76

الحرب البرية ..... 17

العودة إلى الكويت ..... 37

وتستمر الحياة..... 28